

الملك عبدالعزيز - رحمه الله -

وخصائص الدولة ، والقائد ، والدين ، والرقعة ، والأمة

[٥ - ٢]

عبد العزيز ، والحق التاريخي :

قال أبو عبدالرحمن : الخِصِيصة للدولة السعودية أنها حق تاريخي للأمة ، وما مضى لمحة عن السلفية التي قامت عليها دولة آل سعود ، وثمرتها محاسن ملموسة دنيوياً في تاريخنا السعودي .. ولا مرأى أن التجزئة أصابت بلادنا العربية والإسلامية من دولة واحدة إلى دويلات وأقطار ، ولا ريب أن الملك عبدالعزيز رحمه الله حقق أعظم وحدة وطنية في البلاد العربية تحقق بها مفهوم الدولة الواحدة .. لقد قيل عن الأحداث السعيدة التي ابتدأت عام ١٣١٩هـ : إن عبدالعزيز استعاد حقه التاريخي !! .. فهذا الحق التاريخي المنسوب إلى فرد (هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن رحمهما الله) ينبغي تتبع جذوره التاريخية ؛ لنعرف حقيقته : أهو حق فرد ، أم حق أمة ضائعة ؟.

أبو

عبدالرحمن

ابن عقيل

الظاهري

* محمد بن عمر

ابن عبدالرحمن
العقيل .

- ماجستير من
المعهد العالي
للقضاء في
التفسير ، وله
مشاركات كثيرة
في التاليف
والمقالة والإذاعة ،
وعضو مجمع
اللغة العربية
بالقاهرة ،
ورئيس الشؤون
الثقافية بجمعية
الثقافة والفنون ،
ورئيس تحرير
مجلة التوباد ،
وأول رئيس
للنادي الأدبي
 بالرياض .

الطبعة

السنة السابعة

العدد السادس والعشرون

جمادى الآخرة ١٤٢٥هـ
أغسطس ٢٠٠٤م

ومن جذور هذا الحق التاريخي أن هذه الجزيرة - ولا سيما^(١) منطقتها الوسطى - مَسْبُعة وشرعية غاب .. أضعفها نهب لأقواها : فتحالف المحمدان (محمد بن عبدالوهاب ، ومحمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان الحنفي جد آل سعود) وكان ابن سعود أمير قرية فحسب ، ولكن حلفهما يطمح إلى آفاق يكون العرب والمسلمون فيها دولة واحدة تطبّق شرع رب واحد سبحانه .

وفي سنة ١١٥٧هـ غصت الدرعية بفضلاء ليسوا من أهل البلد جاءوا يأخذون العلم عن الشيخ ، وينضمون إلى دولة محمد بن سعود ، وكانوا في شظف من العيش؛^(٢) فكانوا بالليل يحترفون ويأخذون الأجرة ، وفي النهار ينتظمون في حلقة الشيخ .. إلا أنهم المادة الخام للدولة الإسلامية الفريدة التي وَحَّدت الجزيرة الممزقة .. وبعد سنوات قليلة رأينا ابن بشر يقول عن قُرْيَة الدرعية : «ولقد نظرتُ إلى موسمها يوماً ، وأنا في مكان مرتفع وهو الموضع المعروف بالباطن بين منازلها الغربية التي فيها آل سعود ، والمعروفة بالطريف ، وبين منازلها الشرقية المعروفة بالبحيري التي فيها أبناء الشيخ - ، فرأيت موسم الرجال في جانب ، وموسم النساء في جانب .. وما فيه من الذهب والفضة والسلاح والإبل والأغنام ، وكثرة ما يتعاطونه من صفقة البيع والشراء والأخذ والعطاء ، وغير ذلك (وهو مد البصر) .. لا تسمع فيه إلا دوي النحل من

(١) قال أبو عبد الرحمن : في حذف واو لا سيما - بتشديد الياء ، وتخفيفها، وحذف الميم ، وفي حذف «لا» خلاف انظره في معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٢) انظر ابن بشر ، ج ١ ، ص ٤٣ ، طبعة الدارة الرابعة بتحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف ابن عبدالله آل الشيخ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

النجنج (١) . وقول : بعث واشترت !! .. والدكاكين على جانبيه الشرقي والغربي.

(١) النجنج الصوت والجلبة والتحرك والاضطراب .. استعمال عامي له أصل من الفصيح .. والمعاني الفصيحة ذكرها الزبيدي في تاج العروس ٤٩٦/٣ : فقال : «نَجْنَجَ فلاناً عن الأمر أكفه ومنع ، ونجنج إذا حَرَكَ وَقَلَّبَ .. ويقال : نَجْنَجَ أَمْرَكَ فَلَعَلَّكَ تَجِدُ إلى الخروج سبيلاً ، وَنَجْنَجَ الأَمْرَ : إذا هَمَّ به ولم يَعَزِمِ عليه ، أو رَدَّدَ أَمْرَهُ ولم يُنْفِذْهُ .. ونجنج الإبل : إذا ردها عن الماء .. وعبارة الجوهرى : نجنج إبله إذا ردها على الحوض وأنشد بيت ذي الرمة :

حتى إذا لم يجد وَغَلًا وَنَجْنَجَهَا مخافة الرمي حتى كلها هيمُ

وعن الليث : نجنج إذا جال عند الفزع ، ونجنج القوم صافوا في المربع (هكذا بالموحدة ، وفي أخرى بالمشاة الفوقية) .. [يعني بآء المربع] ، ثم عزموا على تَحْضُرُ المياه .. ويقال : تنجنج إذا تحرك .. ونجنج في رأيه وتنجنج : تحير واضطرب .

وقول الجوهرى : تنجنج لحمه (أي كثر واسترخى) غلط ، وإنما هو تبجج بباءين موحدتين ، وقد تقدم. وهذا الذي رد به عليه هو قول الهروي بعينه .. كذا وَجِدَ بخط أبي زكريا في هامش الصحاح.

وَنَجَّ : أسرع : فهو نَجُوجٌ .

ومما يستدرك عليه : نَجَّ الشيء من فيه نجاً كمجّه .. وعن أبي تراب : قال بعض غَنِيٍّ : يقال : لجلجتُ اللقمة ونجنجتها إذا حركتها في فيك ورددتها : فلم تبتلعها .. وعن شجاع السُّلَمي : مَجْمَج بي ونجنج إذا ذهب بك في الكلام مذهباً على غير استقامة ، وردك من حال إلى حال .. وعن ابن الأعرابي : مَجَّ وَنَجَّ بمعنى واحد ، وقال أوس :

أَحَاذِرُ نَجِ الخيل فوق سَرَاتها ورِباً غَيُوراً وجهه يتمعرُ

نَجَّتْهَا : إلقاؤها عن ظهورها .. والنجنجة : الحبس عن المرعى ، ونجنجت عينه : غارت .. والينجوج والأنجوج : عود البخور .. قال أبو ذؤاد :

يَكْتَبِينَ الأَنْجُوجَ فِي كِبَةِ المَشْتَى [م] وَيُلْهُ أَحْلَامَهُنَّ وَسَامَ

وفي حديث سلمان [رضي الله عنه] : أَهْبَطَ آدَمُ مِنَ الْجَنَّةِ وَعَلَيْهِ إِكْلِيلٌ : فتحات منه عود الأنجوج .. والمشهور فيه أنجوج وِلنجُوج ، وقد تقدم .. ومما يستدرك عليه : النَّجْجُ : كناية عن النكاح ، والخاء لغة ..

قال أبو عبد الرحمن : يحتمل أن استعمال العامة للنجنج بمعنى الصوت والجلبة حكاية صوت من نج نج ، أو بالإبدال من اللام : لأن اللجة صياح ، أو بمجاز من معاني مادة نجنج في الفصيح .. وهذا الأخير هو الأرجح .

وفيهما من الهدم والقماش والسلاح مالا يوصف»^(١) .

قال أبو عبدالرحمن : فالخصب والرغد حق تاريخي لعبدالعزيز ورثه منذ محمد بن سعود ، وهو يريد استعادته بإذن الله بعد أن حل بالأمة مجاعات ومساغب وضياح حيلة ؛ فأكل الناس السمح ، ثم الدعاع وطعمه كطعم التراب ، وقد كتبتُ عنه شعراً أُملي عليَّ بسميرا أيام إقامتي بها آخر عام ١٤١٢ هـ ، وشووا غصون الشجر اليباس وجذورهما (وكانت تسمى شويطاً) ودقُّوها ، وكذلك السُّرح وهي حبال يابسة مقدودة من جلود الإبل شووها ودقوها وأكلوها ، وأكلوا الميتة مما أصله مباح ، ومما أصله حرام كقنين الحمار ، وحفظت حوادث لبشر أكلوا بشراً ، وحوادث أخرى لبشر هموا بأكل بشر .. وهذه المجاعات يتبعها ويلازمها أمراض فتاكة ، وتنتج عادة عن حياة السلب والنهب وحروب القرى المبيرة ؛ فتشج الموارد ، ويعم الخوف ، وتتعلل الملكات والمواهب عن الحرف ، وتقفل السبل أمام من يريد الضرب في الأرض ؛ فالحق التاريخي لعبدالعزيز أن تعود كل قرية في الجزيرة كالدرعية التي وصفها ابن بشر .. تعود قرى آمنة راغدة لا يقع فيها عاطل ولا ضائع .

ثم نعود لجذور الحق التاريخي؛ فنجد الإمام الثاني عبدالعزيز بن محمد ابن سعود ذا مصحف في يمينه وسيف على عاتقه .. لا يخرج من المسجد بعد صلاة الصبح حتى ترتفع الشمس ويصلي السنة ، وكان من دعائه لرعيته الذي حفظه رفاقه ، ودوَّنه ابن بشر : اللهم أبق فيهم كلمة لا إله إلا الله حتى يستقيموا عليها ، ولا يَحِيدُوا عنها ^(٢) .

ووصف ابن بشر الأمن في حياته ؛ فقال عن عبدالعزيز بن محمد : «وهو

(١) عنوان المجلد ٤٤/١ .

(٢) عنوان المجلد ٢٦٦/١ .

حقيق بأن يلقب مهدي زمانه : لأن الشخص الواحد يسافر بالأموال العظيمة أي وقت شاء ، وكانت جميع بلدان نجد من العارض والخرج والقصيم والجنوب وغير ذلك من النواحي في أيام الربيع يُسَيَّبُونَ جميع مواشيهم في البراري والمفالي من الإبل والخيول الجياد والبقر والأغنام وغير ذلك .. ليس لها راع ولا مُراع ، بل إذا عطشت وردت على البلاد تشرب ثم تصدر إلى مفاليها حتى ينقضي الربيع» (١) .. وذكر من المفالي الحمادة وأراط والعبلة وروضة محرقه والنقعة قرب ضрма وقرى عبيد من وادي حنيفة، وذكر الحجاج والقوافل والسُّفَّار ومن يجبون الزكوات والغنائم .. كل أولئك يأتون من البصرة وعمان وإيران والعراق ؛ فيرجعون كما أتوا سالمين في أنفسهم وأموالهم .. قال ابن بشر : «ليس يؤخذ منهم شيء من الإتاوات والقوانين التي أحيوا بها سنة الجاهلية .. يخرج الراكب وحده من اليمن وتهامه الحجاز والبصرة والبحرين وعمان ونقرة الشام وسلاحه عصاه» (٢) .

وهذا الإمام العادل عبدالعزيز الأول (الذي أقام الأمن في ربوع المملكة بفضل الله ثم بفضل تطبيق الشرع والقوة والشدة على المفسدين) كان رحيماً بالريعية ، ليناً، متودداً ، كريماً ، براً بأهل العلم .. وقد ذكر ابن بشر : أن الصبيان إذا خرجوا من عند المعلم يصعدون إلى الإمام عبدالعزيز بألواحهم ، ويعرضون عليه خطوطهم ؛ فمن تحاسن خطه منهم أعطاه جزياً ، وأعطى الباقيين دونه (٣) .

قال أبو عبد الرحمن : هذا والله هو الملك السري الذي يكون فيه الملك رب أسرة ومربي جيل!! وكل سموق علمي في بلادنا بففضل الله ثم فضلهم؛ فهو لهم صدقة جارية.

(١) عنوان المجد ١/٢٦٧ .

(٢) عنوان المجد ١/٢٦٩ .

(٣) انظر : عنوان المجد ١/٢٧٥ .

والإمام عبدالعزيز الأول من كبار العلماء تتلمذ أمداً طويلاً على الإمام محمد ابن عبد الوهاب، ومثله ابنه سعود الأول الذي بلغت الدولة في عهده عزها وغاية سعتها ؛ لأنه قائد مظفر بعيد الهمة والهيبة .. كان من العلماء ، ووعظه مؤثراً .. وكان مما يُتلى في مجلسه ، ويقوم هو بالتعليق عليه : تفسير الإمام الفحل ابن جرير الذي لا يقرؤه إلا خواص العلماء ، وصحيح البخاري .. ومن سننه التي تثب بالأرواح أنه كان يحب سماع القرآن من غيره ؛ ولهذا كان إذا ركب في مغازيه وحجه حف به القوم على النجائب العمانية يحدو به مقرئ حسن الصوت .. وهكذا كان ابنه عبدالله علماً وصلابة .. إلا أنه غلب أحكام الأخلاق والشيمة على دهاء السياسة وتعليبتها ؛ فانتهى به الدور السعودي الأول .. ومن مواقفه الخلقية النبيلة أنه حقن الدماء باستسلامه - بعد طول جهادٍ ومصابرة - ، وبوسعه أن يفر في الجبال والوهاد؛ فيخرج رعيته! .. فهذا الأمن المثالي، وذلك الامتداد الذي يوحد القرى على دولة واحدة ، ويوحد الموارد على مالية واحدة ، ويوحد الفروسيات المبعثرة في التوافه على جيش واحد : هو الحق التاريخي لعبدالعزیز الثاني .. لقد اعتدّى على ذلك التاريخ؛ فأصبحت المملكة إمارات متناحرة ، وأصبحت المنطقة الوسطى عشرات من الإمارات بعدد القرى ، ومحالاً نفوذ أسري ، وأصبح الشرع وازعاً لقلّة من الأفراد ومجرد فتوى للجماعة ، ولم يكن شرع الله حكماً ملزماً منظماً لسلوك الجماعة ؛ لأنه ليس له سيف يحميه، ولا دولة تقوم عليه .. ومن كان يُشار إليه بالبنان من أمراء المناطق فهو إما ذو مشيخة قبلية أو هموم إقليمية لا يفكر في وحدة دولة تقوم على تحضّر وتعليم وإحياء وازع شرعي .. ولن يعيد عبدالعزيز حقه التاريخي حتى يعيد لربوع الجزيرة أمنها ، ويعيد لشرعية الله حريتها ونفوذها ؛ فالخصب والنماء والرغد والأمن وسلطة الشريعة كلها صفات الحق التاريخي الذي

يدَّعيه عبدالعزيز .. والحق التاريخي لعبدالعزيز تميَّز بخصيَّصتين : الوعي السياسي، وعرض التجربة .. وبيان ذلك أن عبدالله فيلبي تتبع أدوار الدولة السعودية فوصف الدور الأول بأنه ديني بحث، ووصف الدور الثاني بأنه دنيوي. ووصف الدور الثالث - دور عبدالعزيز بن عبدالرحمن - بأنه سياسي ديني.. وهذا التقسيم صحيح إذا فهمنا أن الدور السياسي يعني الوعي بالقوى العالمية خارج المنطقة ومدى قدرها ، وهو باطل شديد البطلان لو فهم الدور السياسي فهماً عاماً بأن المراد الانسلاخ من همٍّ ديني وقيام حكومة سعودية سياسية كيفما كان الانتماء.. ذلك أن جميع الأدوار السعودية دينية سلفية يأخذ عليها أعداؤها انبثاق حكومتها وحياة مجتمعتها من الدين في كل شاردة وواردة .

وإنما معنى الدور السياسي الوعي بالقوى العالمية، والتعامل معها تعاملًا سياسياً تبعاً للوعي بقدرها .. والدور الأول - ولا سيما في عهد سعود الأول رحمه الله - لم يلائن القوى العالمية (ولا سيما الدولة العثمانية) ، وهذا ما ذكره حافظ وهبة، ولا أستبعد أنه وعبدالله فيلبي ذاكرا بذلك الملك عبدالعزيز رحمه الله ؛ ولهذا كانت الكارثة على يد الإمام عبدالله بن الإمام سعود .

والدور الثاني له قطبان : الإمام تركي بن عبدالله ، وابنه الإمام فيصل : فالأول أراد أن يعيد جغرافية معينة إلى نطاق دولته المسلمة ، والدين معروف ومقتنع به ، وإنما المراد أن يحكم الدينُ ، وأن يزغ جنائيات البشر وسلوكهم في كل دقيقة وجليلة .. والأول وسَّع حدود مملكة أبيه ؛ فالدور الثاني ديني وسياسي معاً إذا أريد معنى عدم فصل الدين عن الدولة .. بيد أن عبدالله فيلبي لاحظ وعي الإمام فيصل بالقوى العالمية المتصارعة (ولاسيما تركيا وبريطانيا) ؛ ولهذا وفَّق بين السياسيتين الخارجية والداخلية قدر المستطاع .

قال أبو عبدالرحمن: وكذا الإمام تركي أشادت بتسامحه وبعد نظره الدراسات الجادة عن علاقته بالإمارات الساحلية الشرقية .

وجاء عبدالعزيز بن عبدالرحمن وهو أكثر وأدق وعياً بالقوى العالمية العديدة المتصارعة على أنقاض حربين كونيتين طاحتين ، وهو أكثر وأدق وعياً بالأخطاء التاريخية التي مرت بالتاريخ السعودي ؛ ولهذا نقل عنه أمين الريحاني نقداً حقيقياً لعمه الإمام عبدالله بن فيصل الذي انتهى الدور السعودي الثاني في عهده .

والوضع العالمي محرج جداً بالنسبة إلى رجل كعبدالعزيز لا يريد الانتماء ، ولا يريد إلا إخراج سفينة أمته من التيار .. والوضع الداخلي أشد إحراجاً حيث المجتمع: إما عامي ، وإما رجال علم فضلاء عندهم الحماس الديني ، ولا علم لهم بواقع السياسة الخارجية .. ومن عَلمَ عنها بعض الشيء فربما لم يقدّر الأسباب المادية الأرضية للقوى العالمية ؛ فاستعان عبدالعزيز بالله ، وتعامل مع القوى بحيلة الأريب النزيه ، وتعامل مع ما في الداخل من قصور علم تعامل القوى الورك .

وفي أمثال العامة قولهم: «أشين من طقة الغارة» و «أشين من قولة جوكم»؛ وذلك لكثرة الصريخ والنعي.. لا يخلو فصل أو نصف فصل من حرب غير شريفة، ولا يخلو بيت في كل مناسبة من يُتَمِّ وتُكَل جماعي، ولا تخلو قرية من ناع ؛ فأذن الله بالحق التاريخي لعبدالعزيز يجمع الشمل، ويوحد الكلمة، ويؤمن العش والسرب.. وتكافأت الفرص، وارتفعت البطالة، وعم الرغد، وهُدِّدَت الأمية بالحو ؛ فالحمد لله كثيراً .

قال أبو عبدالرحمن : كم بيننا وبين هارون الرشيد - على سبيل المثال - من القرون ٥٠٠. ولكن النشوة لا تزال (ولن تزال) بكرة عند كل عربي مسلم يتذكر: «أمطري حيث شئت فإن خراجك لي» ١١ .. لماذا ٥ .. لأن القادة العظام رموز دينية وطنية قومية تاريخية يبتهج بهم المنتمي إلى الأمة ، ويفخر بمناقبهم ؛ لأنه يفخر

بارثه .. وعبدالعزيز رحمه الله في تاريخه العملاق إرث لكل واحد منا لم تفصل بيننا وبينه القرون وتبدلات الأحوال، بل ما نحن فيه من أمن ورغد وعلم وتحضر : فضل من الله ثم من ثمار مباركة ، وظلال وارفة من الدوحة التي أرسى عبدالعزيز جذورها ، وعهد إلى القوأم على المسيرة بسقيها ورعايتها .

والله سبحانه يعز الأمة ويرفع رأسها بفرد ، ويخفض آخرين بفرد .. وعبدالعزيز فرد ، ولكنه ذو تاريخ عملاق أحيا الله به مجد أمة ؛ فرداً لها هوية تفخر بها .. هوية تتلاحم فيها الديانة والعروبة قيادة ، والوطنية مستراحاً ، وخفض عيش لكل فرد .. وكل دار للإسلام وقادته فهي ذات حقوق وطنية .

كان الفرد من الجزيرة العربية يحل بالبلاد العربية والإسلامية والعالية ولا يحمل هوية قيادية يعرفها العالم في الأسرة الدولية .. أو العالم الإسلامي في أسرة الرابطة الإسلامية.. أو العالم العربي في نطاق همومه الإسلامية القومية القيادية.

قد يقول : إنه من نجد أو الجنوب أو الشمال ، أو من قبيلة كذا .. فلا يُعرف من أي خلق الله ، ولا تعرف رقعته من أرض الله إلا أنه من جهات مكة أو المدينة .. وربما عُرف من مؤرخ واحد من عشرات المؤرخين تميّز بأن خبرته التاريخية لم تكن محلية فحسب .. ثم أصبح ابن الجزيرة يحمل هوية سعودية يفخر بها تاريخاً وحضوراً ، وهي هوية ما عُرفت إلا وهي ذات يد تأسو ! .. ويقال بحق : إنها هوية ذات خيرين : ففي الداخل كانت وحدة أمة ، وبناء أجيال ، ورفع ظلم ، ورغد عيش ، وسلاماً لا يتطرق إليه الغربة والقلق ، وشموخاً حضارياً وثقافياً .. وفي الخارج كانت يدأ سحاء، تأسو نكايات الهموم البشرية على الصعيد الإسلامي ، فالعربي ، فالإنساني .. على أننا حديثو عهد بنعمة ، وكنا قبل ذلك ضحايا الفقر والشظف والجهل والمرض والقمل ، ولا أحد يتحسس همومنا من جيراننا الذين

عندهم أنهار وتضاح وسكر وحبوب ومناسج ومعلمون وأطباء .. ولما كانت بلادنا مأماً لطالبي الرزق، ومقصداً زائداً على المعتاد لحجاج بيت الله وزائري الحرمين الشريفين: قطفوا ثمار ما خلده الله لعبدالعزیز من أمن السبل والفجاج ، وراحة الذهاب والإياب ، ورغد العيش ، وطيب الإقامة ، وحسن القدوة والأسوة في القول والفعل والمعتقد : فهذا شيء من معاني أن هويتنا التي نفخ فيها عبدالعزیز ذات خيرين .

عُصْبَةُ دِينٍ ، لَا عَصَبِيَّةَ عَشِيرَةٍ :

قال أبو عبدالرحمن: لا أعلم بعد حكومة رسول الله ﷺ ، وخلفائه الراشدين، وانتفاضة صلاح الدين الأيوبي: دولة قامت على العصبية للدين مثل دولة آل سعود .. ولا يغلط عليّ غالط فيحسب أنني ألغي دينية الدول الإسلامية التي تعاقبت على شرقنا العربي والإسلامي !.. كلا .. إنما أقول : تلك الدول: إما ذات عصبية قبلية ودعاوى حقوق تاريخية للزعامة المجردة، وإما ذات عصبية جنسية أممية هاضت على الشرق ثم اعتنقت الإسلام ، وإما ذات عصبية إقليمية أو عرقية استقلت عن الخلافة الإسلامية حال ضعفها .. وكل هذه الدول حكمت بالإسلام : لأن المجتمعات مسلمة ، ولم تهزم النفوس بعدُ بجبروت علم مادي : فتقبل بيسر الأيديولوجيات ودعايات كيد الكافرين وتضليلهم .. ولم تقم دولة آل سعود على جموع تأتي من الشرق أو الغرب باسم العصبية لمجد أسرة بدافع حمية قبلية ، ولا باسم برنامج يُمَلَأ من الخارج ، ويراد تنفيذه في جزيرة العرب .. وإنما انطلقت من قرية صغيرة جداً هي الدرعية ، وليس لها دعاية ألبتة غير الاجتماع على رب واحد يعبد ، وشرع واحد يُنفَّذ ، وتجميع القوى والقدرات لعمارة الأرض وقد مزقها التفرق الإقليمي والقبلي .

قال أبو عبدالرحمن : كنت أقرأ الفصل العشرين من الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون الذي ذكره بعنوان «من علامات الملك التناقص في الخلال الحميدة

وبالعكس» : فقد جعلَ المَلِكَ خلافةً وكفالةً للخلق بشرع الله، فقال : «من حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة ، وأُنُست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه : فقد تهيأ للخلافة في العباد ، وكفالة الخلق»^(١) .. وذكر أخلاق السياسة لكل دولة عصبيتها الدين ، وهذه الأخلاق لم نفقدها في البيت السعودي على مدى التاريخ ، وهي كما حددها ابن خلدون : «الكرم ، والعفو عن الزلات ، والاحتمال من غير القادر ، والقِرَى للضيوف ، وحمل الكل ، وكسب المعدم ، والصبر على المكاره ، والوفاء بالعهد ، وبذل الأموال في صون الأعراض ، وتعظيم الشريعة ، وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عند ما يحدوده لهم من فعل أو ترك ، وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين ، والتبرك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم ، والانقياد إلى الحق مع الداعي إليه ، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم ، والتبذل في أحوالهم ، والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : بعض رجال العلم الشرعي قد يكون لهم احترام وهالة لدى العامة وسواد الشعب في البلدان الأخرى ..^(٣) من قبل الموافقين لهم في النحلة ، وإنما العبرة بالأخلاق السياسية .. أي أن يكونوا مقدرين من الدولة ، وتقدير الدولة للعلماء في العصر الحاضر خِصِيصة في البيت السعودي لا عن حاجة طارئة

(١) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٥٢/١ .

(٣) لما طال الفاصل بين المجرور «من قبل» وعامله : ناسبت النقطتان الأفقيتان إشعاراً بعدم اتصال العامل بمعموله : للبحث عن العامل .

أو مصانعة ، ولكن عن إرث ، ودينونة ، وإعمالٍ لوصايا معهودة .. وقبل الحماس الشبابي للإسلام كان هذا البيت ورعيته في المعترك وحده .. كان على دين شرعي ، ويُراد منه أن يكون على دين وضعي كغيره ، وكان أعداء الملة يستفزون به بحيل شتى ؛ ففي عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمهما الله تعالى تأججت قلوب ذوي الكفر على عمران مناسك الحج ، فطنطنت الدعاية المغرضة باسم حقوق الحيوان والرفق بالحيوان .. والغرض إلغاء شريعة الله في النذب إلى الفداء بمنى^(١) .. وفي كل فينة تُثار حقوق الإنسان، وليس الغرض حفظ حق الإنسان بشريعة الرحمن خالق الإنسان، وإنما الغرض حماية الإنسان من دين الرحمن، واعتبار الدين قيوداً وأغلالاً .

وقبل ذلك الحماس الشبابي كان التدين بالإسلام مظهر تخلف ونقص ، وكان التجديف والممارسة الحرة العلنية في الخارج مظهر تمدين وطلائعية لدى الأمم الكافرة ذات القوة المادية ، ولدى الدهماء .. ولم يُؤثر عن هذا البيت إلا ما قاله ابن

(١) كان الدكتور صالح صبحي بن إبراهيم ، وهو طبيب مصري من أهل القاهرة ، تعلم في الألسن والقصر العيني ، ثم في باريس وتوفي في عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م : قد اقترح أن تُحرق الأضاحي في منى نزولاً عند رغبة الإنجليز الذين كانوا يأملون أن يجدوا من خلال ذلك موطئ قدم لهم هناك .. ولكن الرحالة الفرنسي كورتلون حل في تقرير قدمه إلى السيد جيل كامبون الحاكم العام للجزائر الأوضاع الصحية في وادي منى ، واعتمد في تحليله على ما كتبه أدريان بروس في كتابه : الاتجاه الجديد للسياسة الصحية (بالفرنسية) ليؤكد بالاعتماد على تفاصيل تقنية دقيقة أنه لا وجود لبقايا العظام أو الأقدار فيها ، وقال : إن كل ذلك يزول بفضل ظاهرة النترجة *Nitrification* : وهي تفاعل جرثومي كيميائي يحوّل الأمونياك وأملاحه إلى نترات تتحلل بموجبه بقاء الهدي . انظر : الحج إلى مكة المكرمة وانتشار الأوبئة ، أخيل - أدريان بروس ، ترجمة محمد خير البقاعي ، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية ، المجلد الثامن ، العدد الأول - المحرم - جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ / مارس - أغسطس ٢٠٠٢م ، ص ٢٥٥ .

خلدون من الحياء من المشايخ والأكابر .. بل من العامة ؛ فلم يُؤثر عن مسؤول من هذا البيت الكريم في الداخل أو الخارج تجديف ، أو تظرفُ بما لا ينبغي ، أو رفع جانب الحياء والمبالاة ؛ لأن أخلاق السياسة في هذا البيت شرط وجود لا حلية تخلقُ مصطنع .

وذكر ابن خلدون أخلاقاً سياسية أخرى هي المعهودة بعينها في تاريخنا المحلي، وهي إكرام الصالحين تديناً ، وإكرام العلماء للحاجة إليهم في إقامة مراسم الشريعة ، وإكرام التجار ترغيباً لهم؛ ليعم النفع بما في أيديهم ، وإكرام الغريباء باقتضاء الدين والأخلاق ، وإنزال الناس منازلهم بمقتضى العدل .

قال أبو عبد الرحمن : وعصبية الدين في هذا البيت كنز من كنوز الأمة لا يَنصُصُ عليه إلا مغامر بمستقبل أمته ، وذلك من عدة وجوه :

أولها : أن هذه العصبية مبادرة ذاتية من أجدادنا ضحوا فيها بالمال والأنفس والراحة ؛ لتحقيق مرغوب واحد أجمعوا عليه ، وهو عبادة الرب وتحكيم الشرع .. ولم تتغير الدعاية لهذا المرغوب في السلم عن حالتها أيام الجهاد من أجلها .. وأي تنغيص على هذه العصبية فهو رغبة عن هدفها .

وثانيها : أن هذه العصبية واقع عملي في القدرات الدنيوية ؛ فقد حصل الاتحاد إقليمياً وقومياً ، وأُتيحت فرص العمل والعلم والتعليم ، وحصل الرغد والأمن .. وأي تنغيص على هذا فإنما هو ملل من النعمة كملل قوم سبأ .

وثالثها : أن هذه العصبية واقع عملي في إقامة مراسم الشريعة، وصيانة العلن عن التواطؤ على محرم؛ فكان المجتمع بدولته ورعيته مجتمعاً إسلامياً .. وأي تنغيص على هذا فهو مغامرة على مجتمعٍ دون إقامته مليون حاجز في عصر الوفاق العالمي!!

ورابعها : ملكة الممارسة التاريخية ما ينيف على قرنين ونصف اكتسبت فيها الخبرة، والعلمُ بداء المجتمع وأدوائه، وإجماع الرعية على الطاعة والاعتزاز بها .. وكثيراً ما قلت : إن حق دولة بهذه العصبية الدينية أخص من واجب الحسبة الشرعية ، ومن ينغص على هذا الحق مأزور غير مأجور . وقد صرح ابن خلدون بالإزْر حال الجور : فما بالك إذا لم يوجد جور!! قال في الفصل السادس من الباب الثاني : «إن كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون إلى القيام على أهل الجور من الأمراء داعين إلى تغيير المنكر والنهي عنه ، والأمر بالمعروف ، رجاء في الثواب عليه من الله ؛ فيكثر أتباعهم والمتشبثون بهم من الغوغاء والدهماء ، ويُعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك ، وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين؛ لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم ، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه .. وأما إن كان من الملّسين بذلك في طلب الرئاسة فأجدر أن تعوقه العوائق ، وتتقطع به المهالك ؛ لأن أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانتة والإخلاص له والنصيحة للمسلمين»^(١) .

قال أبو عبدالرحمن : ودولة التوحيد ذات مركز ديني ومالي معاً ، ومن خيال التصور أن تُسالم دولُ الكفر هذا الوجودَ في عهد الوفاق العالمي، وهو وفاق لم يخرج من ربة تحكمه داخلياً وخارجياً كلُّ دول العالم الثالث بما فيهم العالمان العربي والإسلامي .. والقطر القائم على الإسلام دولة ورعية لا ينال الوفاق العالمي الكافر من أمنه الفكري والديني إلا بالكيد والدس وتمويه الباطل والتلبيس على الحق ..^(٢)

(١) تاريخ ابن خلدون ١٦٩/١ .

(٢) انقطع الكلام السابق ، واستؤنف كلام جديد ؛ فكانت النقطتان الأفقيتان دلالة على ذلك ، وكان ذلك أولى وأجمل من وضع نقطة واحدة والابتداء بسطر جديد .

وتفرد شخص أو جماعة بما يظن أنه حسبة افتيات على الإمام ، وإحراج له أمام الغيظ العالمي المعادي للملة والنحلة .

وحركات التاريخ في الأغلب حركات جزئية ، وتكون تارة حركات عالمية : فتُبلى الأمة بقدر كوني فوق إرادتها وقوتها .. وأسوأُ تغيُّر عالمي ظرف الوفاق العالمي: حيث تضافرت أمم الكفر على استلحام بعضنا عسكرياً ، أو محاصرتنا اقتصادياً ، أو الإرجاف بنا عالمياً .

وكل مخلوق فكماله هو مدى قدرته ، وليس كل مالدينا من قصور يكون سببه تفريطاً في عصبية الدين ، أو تعمداً للإخلال بجانب الولاء والبراء .. والسبح في التيار انتحار .

ولم تفتن أمتنا في دينها فتنة يُستحلى معها بطن الأرض ، ولم تضج أرضنا بمتضورٍ جوعاً ، أو بمظلوم في عرضه أو نفسه أو ماله لم يجد لتخليص الحقوق مرجعاً .. ولم يوجد في رسومنا (مما يُبنى عليه علنُ المسلمين) تنظيم يتقزز منه المسلم فيقول : أبرأ إلى الله من هذا !! .

والمعادلة في السياسة الخلقية للدولة التاريخية ظاهرة لعيان العامة قبل الخاصة، وهي الحفاظ على عزائم العصبية الدينية في الداخل برسوم الشريعة القائمة، والوازع السلطاني الماثلة أجهزته ، والتربية التعليمية والإعلامية والوعظية بحسب القدرة.. كما أنها استدفاع للشر من الخارج بالصبر والأناة، وبذل الحطام الدنيوي . وكل جهد فردي أو جماعي في الدعوة والإصلاح لا يجوز بحال أن يفتات على معادلات الدولة وحساباتها، ولا أن يحرجهما في جهادها الخارجي الأكبر ما دام الواقع للدولة وللوفاق العالمي بالصورة المذكورة آنفاً .. فإن جاءت دعوى الإصلاح تشهيراً من عاصمة أجنبية عدوة في الملة والنحلة فواجبٌ شجب هذه العمالة والتحذير

منها بالأقلام وعلى المنابر .. وإعلان البراءة من هذه العمالة واجب كل مسلم .
قال أبو عبد الرحمن: ومطلب المسلم أن تكون حياة الأمة كلها من المعروف الذي
أثنى الله عليه ، وأن تكون حياة الأمة كلها خالية برِيئة من المنكر الذي ذمه الله ..
والمطلب أن تكون أمة الإجابة في مواجهة لأمة الدعوة - أي التي هي موضوع للدعوة -
باللسان واليد والسنان حتى تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الحكم في عباد الله
لشرع الله .. هذا مطلب المسلم ؛ لأن الإسلام أراد منه ذلك .. إلا أن قانون الإسلام
يجعل التكليف حسب الاستطاعة، والقيام مع القدرة ، وعلى المسلم أن يظل في
إعداد القوة ؛ لأن الله وعد بإتمام المسيرة ولم يعد بابتدائها ، وهو سبحانه إذا يشاء
قدير ، وهو على ما يشاء قدير ، وهو على كل شيء قدير .

وجعل سبحانه لمطلب المسلم معادلات شرعية يزن بها المسلم أموره ؛ فلم يأذن
له الشرع بالإلقاء إلى التهلكة بدعوى التوكل ، بل أوجب مراعاة الأسباب المادية
والقوى الأرضية .. وإنما يجب التوكل المجرد عن الأسباب المادية تجرداً يتحقق
المسلم نفعه : حينما يقع في تهلكة على رغمه بغير إرادته وليس معه أي سبب مادي،
فهناك يُغَوَّضُ الأمر إلى الله بإطلاق^(١) .. أما حينما يمنحه ربه سبباً أو أسباباً
فحينئذ يتعهدا ويكافح بها مع إيمانه بأن كل شيء بيد الله، وأن الله مسبب الأسباب.
والذي مكَّنه ربه من صنع أو امتلاك سكين أو سيف أو بندقية أو رشاش أو
صاروخ ، ثم يشهر كل ذلك بمواجهة قوة نووية لم يصنعها ولم يملكها، ثم يقول :
«عليهم الله أكبر» وهو غير مضطر إلى المواجهة ، وغير مجبر عليها للدفاع عن
نفسه وعرضه : فهو سفيه .. والسفه ليس من دين الله .

أما الابتلاء في الدين فقد جعل الله للمسلم مناديع بالمعاريض ، وما جعل على

(١) انظر : كتابي ملاعبة الصيد ص ٧ - ١١ .

من أكره سبيلاً مادام قلبه مطمئناً بالإيمان .. ولم يأذن الشرع للمسلم بأي تصرف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا في حدود المعادلة بين جلب المصالح ودفع المضار ، وأذن له بتعطيل المصلحة الصغرى بجانب دفع المفسدة الكبرى .. وكل مصلحة لا تُستجلب إلا بضرر أكبر فهي مصلحة صغرى ؛ ولهذا كانت الحسبة درجات أضعفها حب المعروف بالقلب وحب أهله ، وبغض المنكر بالقلب وبغض أهله ؛ ولهذا أيضاً فإذا تمت البيعة والولاية لحاكم مسلم لزمّت طاعته ، وكانت طاعته أخص من عموم نصوص الحسبة المقتضية لساناً ويداً .. ولا يُطاع في أمر بمنكر كما لا يعصى في أمر بمعروف .

ومقياس الإسلام في الولاية أن لا يُظهر كفر بواح ، وأن لا تشيع الفاحشة في المسلمين علناً بأن يُعلن بإباحتها بتنظيم إداري ، أو أن يستعرضها السلطان بحماية من جنده .. إن قراراً من الحاكم بإباحة محرّم مقطوع بحرمة ، وسنّه : محادّة لشرع الله ، وكفر عملي ظاهر ، وهو يوجب على الرعية التغيير .. أما إذا كان دستور الدولة يحرم ذلك المنكر ، وقضاؤه وأجهزة تنفيذه تمنع منه وتزرع عنه بشتى العقوبات .. ثم تفشّى ذلك الفساد ؛ لفساد من مسؤول أو مواطن : فذلك يقتضي تعاوناً مع الحاكم وأجهزته بقوانين المعادلة بين حقوق الحسبة وواجب الراعي والحذر من إهانتها ، ولا يبيح ذلك نزاع يد الطاعة لا باللسان ولا باليد .. والحاكم المسلم سلطان الله ، ومن أهانه أهانه الله بالنص الشرعي .. ومن الفتنة في الدين والدنيا تجرّئة العامة على بغض ولي الأمر ومخالفته ورفع هيئته .

وأمن الفرد في نفسه وماله ودينه (بأن لا يُصدّ عنه) كل ذلك أمهات المصالح التي توزن بها نصوص الحسبة .. وأي دعوة باسم الإصلاح تُضخّم مفساد من فعل مسؤولين ومواطنين لم تعلنها الحكومة المسلمة ، ولم يحمها عسكر السلطان ،

ولم يقنن لإباحتها بنظامه.. ثم تسعى إلى تقزيم كل مصلحة من أمن في الأبدان والأوطان والأموال والأديان ، وكون الأجهزة إسلامية ، والتعليم إسلامياً : فإنها (أي دَعَوَى الإصلاح تلك) محرمة شرعاً ، والحكم فيها أنها خروج على الولاية أو مقدمات خروج.

وجاء الملك عبدالعزيز رحمه الله والأمر في شتات؛ فأخذ بكل الأسباب والحيل؛ لتوحيد الشمل، واستعان بالله ثم بسياسته الحكيمة في المعادلة بين المصالح والمفاسد ؛ فهو أولاً بشر غير معصوم تصوراً وسلوكاً .. يُخْطِئُ ويضعف كأي فرد من الرعية ؛ لهذا صار يقتص من نفسه بالتوبة والإنابة ، وأنه على مرأى ومسمع من وازع الدين والخلق ورقابة المجتمع ، وأنه لا يسعه من العلن إلا ما يسع أي فرد من رعيته بأن يكون العلن نظيفاً موافقاً للشرع.. وقد أعاد شاردين ، واسترضى وأرضى من غشمتهم الحرب في سبيل الوحدة والتوحيد ، وكان يقول في اعتذاره : وللحرب أحكام .. ويحاسبه في السر من يحاسب أي فرد من أفراد رعيته في سره . وهو ثانياً أمام قوى وضغوط عالمية فوق قدرته عسكرياً وبشرياً ، وهو يريد أن تسلم له خصائص ومقومات رعيته في ولايته ، وأن يظل تعامله مع أشقائه نظيفاً مجدياً ؛ فتحمل عبئاً مرهقاً في النفوذ من أغوار السياسة الداخلية ؛ ليحفظ وحدة أمته وأمنها المادي والديني والفكري .. وتحمل نفس العبء في النفوذ من أغوار السياسة الخارجية ؛ ليجتنب التصادم مع قوى خارجية لغير ضرورة ، وليحل بالسياسة ما يُبْعِدُ عن الفتنة .

وهو ثالثاً أمام واقع مفكك أمنياً وصحياً وتعليمياً وغذائياً ، وتقتضي السياسة في الضيق والعسر مالا تقتضي في السعة واليسر.. في الأولى يكون الأخذ بالعقوبة عن عدل، وفي الثانية يكون الأخذ بالعفو عن إحسان.. كان الناس في عهد التفكك

ذوي قرى محاطة بأسوار عظيمة عريضة مضاعفة من اللبن ، وكان لكل قرية مدخل أو مدخلان ، ولكل مدخل بواب يُجمع قوته وقوت عياله من أهل البلد .. وكان في كل ركن من القرية مقصورة حربية ، وخارج السور أبراج حربية تراقب أي خطر يحيق بالقرية ، وبعد صلاة العشاء تُوصد الأبواب عن الداخل والخارج .. ولا يخلو أسبوع من صريخ لاستدراك غنم أخذها اللصوص أو شبهها ، ومن ثم يفزع أهل البلد ، وأول من يفزع من ليست له عنز !! .. والسواد لمن لم يفزع ! .. ومن لم تتعين هبته ، أو حال دونها مرض أو شيخوخة : فعليه نائبة مالية يدفعها لأعيان البلد ، أو أميرها .. وربما عاد أهل البلد يدقون طبول الفرع لاسترداد الماشية ، ولكن يسبق طبول الفرع قادم ينعى فلاناً وفلاناً ممن قتل في سبيل استرداد الماشية .. وربما تبع القرية أراضٍ زراعية ، ومفايض شعبان ؛ فيزرعونها ، ويبنون بها قصوراً تعرف باسم البلد كقصور شقراء .. وللقصر أسوار ومقاصير يعانسون فيها ليلاً ونهاراً كما يعانسون في القرية؛ فيقتل الأب ، أو الأب وابنه ، أو الأب وابنه وأخوه في حماية ثور أو حمار كما حدث في قصور سميرا ، وقصر الحليفة كنزة ، وقصور الشعراء .. إلخ .. إلخ .

والناس في جوع لا يأكلون ، وإذا أكلوا لم يشبعوا .. ومع الخوف والجوع لا يتم بناء دولة ، ولا توحيد جيش ، ولا تعليم أمة أمية ؛ فبطش رحمه الله بالمفسدين ، وأبطل الثارات ، وشفأ^(١) النفوس بالقصاص الشرعي ، وصار يُلقن رعيته الأحكام الشرعية بأسلوبهم العامي .. كتب رحمه الله تعميماً أطلعت على نسخة منه موجهاً إلى عبد المنعم بن ناقي الحربي جاء فيه : « من طرف النكال فتحن طرحناه موجب الأمور التالية :

(١) أسلفت أن الرسم الإملائي تعليم للنطق الصحيح ، وليس تعليماً للصرف ، ولهذا رسمت على الألف كل يائي ووإوي .

الأمر الأول : رأفة بالرعايا .

الثاني : ربما أن بعض المأمورين يجتهدون في بعض الفساد ؛ لأجل أخذ النكال ، وأردنا أن نبطل ذلك ؛ لأجل راحة الجميع .. ولكنه إذا ترك الجاني ما يؤدب اتسع الخرق ، واتخذها الأشرار فرصة ؛ فأحببنا أن نبين لكم ماذا يكون على الجانين الذين يعملون المشاغبة ، ويعملون أعمالاً تضر في بعضهم بعض^(١)، وتترك مأموري الحكومة مُكْتَفِينَ عن ردع الجاني .

أما الذي طرحناه فهو أخذ النكال (الفلوس قليلها وكثيرها)، وأما الجنايات كلها فحببنا نحط لها ترتيباً؛ حتى يكون عندكم معلوم يعمل به الأمراء وتمثّل به الرعية:

الأول : أن الجنايات كلها تُعرض على الحكم الشرعي ، والعمدة على الحكم الشرعي ؛ فما كان به قصاص بأي حال تكون فالقصاص كاف عن الجناية والنكال ..

وأما إذا حكم الشرع بين اثنين بحقوقهم ، وثبت عند حاكم الشرع أن الجناية على شخص أو على قبيلة وأن الأمر لله ثم لولاة الأمور للردع؛ فنقول عن ذلك وبالله التوفيق : أما الجناية التي تكون بصيالة من فريق على الفريق الثاني - سواء أنه عرب مع عرب ، أو رجال مع رجال ، أو شخص مع شخص - : فأما العرب الذين يصلون بأهلهم وقبيلتهم بعضهم على بعض فهذا يعمل فيه بأمرين :

الأول : أن المتسبب لهذا العمل يُحطُّ عليه نكال من حاله موجب أمرناحنا لا أمر أي أمير ولا خادم ، ويُؤخذ من الصايل والمتسبب جميع الآلات الحربية سواء أنها ذلول أو فرس أو بندق .. هذا هو الذي يجري على الصائل، ولكن نكرر ذلك أن هذا يكون على نظر الحكومة لا على نظر أي أمير أو خادم.

وأما القتل فيكون سواء أن القاتل متعمدٌ وعفا عنه أولياء المقتول ؛ فهذا

(١) أي يضر بعضهم بعضاً .

يجبس عن نكال الحكومة خمس سنين ، وهذا نكاله .. فأما القاتل بغير عمد فينظر في أمره : فإن كان الأمر خطراً غصباً عليه فتكفي فيه الدية ؛ فإن كان أنه متسبب في حال القتل لكن ما هو بمتعمد قتل الشخص : فهذا الحكومة تنظر في أمره ، ويجبس من سنة إلى سنتين إلى أشهر .

وأما الجنايات التي غيرها (بمضاربة ومثل ذلك) ؛ فيقدر على المتسبب بحبس على قدر عمله سواء أنها أشهر أو أيام معلومة .. عند أول جناية تكون تقرر الحكومة عليه شيئاً من الحبس ، ويكون العمل عليه ...» .

قال أبو عبد الرحمن : ويستمر الخطاب في هذا التقسيم استثماراً للمصلحة المرسلة التي يجعلها الشرع من نظر السلطان .

ورأيت له رحمه الله خطاباً آخر وجهه إلى صالح بن شععل السهلي عن إسقاط الجنايات والثرات ، وعبر عن ذلك بكلمة «دميناه» أي أهدرناه حسب لغة أبناء الجيل .. وهو رحمه الله يحذرهم من خطور الثارات على بالهم ، وقد نشر الوثيقة الأستاذ ابن خميس في معجم اليمامة في مادة «المشاش» ، ونصها : «بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ صالح بن شععل وكافة الإخوان .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. بعد ذلك تفهمون ما من الله به عليكم من نعمة الإسلام ، وبركة الله ثم بركة الإسلام .. هالأمان الذي حقن الله به الدماء ، وامتد الضعيف به ، وحصل به الراحة لجميع المسلمين .. ولكنني سمعت هالأيام بعض الأخبار التي أزعجتني ، وأحببت تبليغكم لأجل أولاً النصيحة ، والثاني الإنذار .. بلغني خبر أن به ناس يتكلمون مع الآخرين : أحد يقول : أنا متهمكم بدم .. و واحد يقول : أنا متهمكم بضربة ، أو عندكم لي ضربة .. و واحد يقول : عندكم لي حلال !! .. تعرفون أن هذا الأمر قد دميناه مرتين :

الأول : أول ما هاجروا المسلمين، والتفتوا لأمر دينهم .. دميना الفايئات كلها .
والثاني : يوم القرعة^(١) دمينا ما فات في القرعة وقَبِلَ .. إلى آخر هذه الوثيقة التايخية النفيسة .

قال أبو عبدالرحمن: هكذا وحَّد عبدالعزيز دولته، وهكذا نهض برعيته تعليماً ووعياً صحياً ودينياً واجتماعياً وسياسياً، وهكذا بفضل الله وفَرَّ لها الأمن والغذاء والدواء، وظل الحكم بشرع الله متوارثاً منذ المحمدين (محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب) رحمها الله إلى هذه اللحظة .. وظلَّت متوارثةً إلى هذه اللحظة البيعةُ على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وظلت المرجعيةُ كتبَ السلف من جيل الصحابة إلى جيل التابعين إلى جيل أحمد بن حنبل وعلماء الحديث .. إلى جيل ابن تيمية .. ولا يزال واجبنا تصحيح المفاهيم التي تخرج عن منهج السلف، ولا نكون إمعين مع ذوي طفرة لم يجربوا الحكم الإسلامي قط، واجتهدوا في أصول الفقه؛ فكاد الفقه عندهم يكون وضعياً، ورأوا أن الغاية تُسوِّغ الوسيلة في التعامل مع أنصار الشيطان ، واستسهلوا مذاهب الفرق الضالة في التهوين من حق الراعي ؛ فلم يتخرجوا من قبولها .

ومن مقتضيات الورع، وتحكيم موازين العدل: النظر بإكبار إلى تصميم هذه الدولة على التمسك بالإرث السلفي - على الرغم من كل الضغوط العالمية حولها -؛ فكانت عند المبطلين نشازاً؛ لأنها الدولة الوحيدة التي تحكم بشرع الله، ويكون دستورها الإسلام.. وعندما قامت ثورة ١٩٥٢م اختلف القانونيون والسياسيون: هل يكون الدستور الإسلامي مرجعَ الدولة، أو من مراجعها، أو لا يكون مرجعاً ؟ .. فاختاروا الثانية !! .. وكانت هذه الدولة السلفية عند المبطلين نشازاً ؛ لأن في مؤسساتها السلفية دوائر الحسبة، والقضاء الشرعي، وتنفيذ الحدود .. وهي

(١) حدثت وقعة القرعة بعد معركة السبلة .

الدولة الوحيدة التي لم يستبح إعلانها إحياء مناسبات التصوف والتدروش: لأنها لم تقرر ذلك في الداخل .. وهي عند المحققين بلد النُزاع ، والطائفة المنصورة .

ومنذ عهد الملك فيصل رحمه الله تنفست الصهيونية باسم حقوق الحيوان لمحاذاة شرع الله في شريعة الفداء بمنى؛ فصمدت الدولة وأبت ولا زالت - رعية وراعياً - على عقيدة: أن بطن الأرض خير من ظهرها إذا مُسَّتْ العقيدة والشريعة، وسيمت خسفاً أن تفتح الباب على مصراعيه لعدو غادر صالحه الأشقاء وهي تعلم كيد الخفي لإفساد الدين والمال والحرث والنسل والعقل .. فأبت - وهي لم تزايد قط باسم القومية والوطنية، بل كانت دعايتها إسلامية - ، وتجرت إرهاباً مالياً وشبهه من جبروت وفاق العدو الموحد .. وبعد شبه الإجماع على المصالحة مع الصهيونية الغادرة: فلا يعني هذا الإجماع اندماج الدولة مع دولة العدوان، بل لكل علاقة حسابها، وهي الدولة الوحيدة التي أبت التعامل الدبلوماسي مع إسرائيل .

وتحاول أن تدرك بالسياسة، ودعاء الرعية، وإصلاح العلاقة بالله ، وولاء أبناء الفطرة والملة والنحلة ما يدفع عنها مالا تقوى عليه من قدر كوني غالب . ولا يشك عاقل أن بنية هذه الدولة المسلمة تأبى أن تسحق دينياً ومنها عين تطرف؛ لأنها إن اضطرت إلى ذلك أخذت بعقيدة اللطف في الظاهرة - وهي النازلة التي هي فوق قدرتها - بعد الاصطبار لكل قوى الأرض ثقة بعناية الله ونصره بعد انقطاع الجهد من الأسباب الدنيوية الموصلة في مجابهة عدو لم تتمن لقاءه: إذن فقه الدعاة لواقع الحكومة المسلمة وقواها، وواقع الوفاق العالمي وقواه: يتطلب مواقف مؤمنة راشدة تجاه دولة تحترق بهموم المسلمين وهمومها .

وشعبها عربي مسلم خصوصيته أنه ذو ملة واحدة، ودولة مسلمة .. وهو دوحه العروبة، ومنه انتشر الإسلام ورفرفت رايته، وفيه عادت السلفية الصالحة .

وشعب بهذه الصفة برعيته وراعيه يجب أن تكون الأمة فيه واحدة؛ فلا تُخرج القيادة التاريخية المسلمة التي اكتسبت وجودها التاريخي المديد بالبيعة الشرعية، ونشر عقيدة السلف ، والوحدة التي ظلت قروناً طويلة ممزقة قبلياً وإقليمياً .

ولو كانت وحدة عبدالعزيز مجرد رقعة على دعاية عروبية، وحكومة يديرها القانون الوضعي : لكان في ذلك رنين تاريخي في تاريخنا العربي الحديث .. ولكن الواقع أن وحدة عبدالعزيز تَوَحَّدُ أمةً وأطراف مترامية متباعدة على دين الله الأحد الصمد عقيدة وشرعية ، ولم تتوحد هذه الجزيرة بعد عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وإنما كانت ولاية فيما بعد تدار من قبل الوالي؛ ليستدفع شرها، ويجبي زكاتها.. وذلك بعد عودة العزوة الجاهلية ، والثارات القبلية ، وعادة السلب والنهب .

أخلاق ملكية :

وهذه المملكة رعية ودولة قامت حكومتها خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس بضياح العرب والمسلمين بعد سقوط خلافتهم ، واقتسام تركتهم ، وتمزيق قدراتهم ومواردهم : بالثورات الداخلية ، والتصارع على كراسي الحكم ، واغتصاب السلطة بملك عضوض حقاً ، ووطئ عسكري وإن تغيرت الأسماء والألقاب ؛ فالعبرة بالحقائق .

ومن العجب أن التسوُّر على السلطة بغير اسم الملكية يُعفي المتسلط من أن يكون باذلاً وهاباً للضعيف والمحتاج وذوي العيلة ، ولسيد قومه ذي الالتزام فيهم؛ لأن المتسلط ليس ذا جيب خاص، والمال مال الشعب، وهو موظف لا يبذل إلا بقرار من الشعب !!.. والواقع - في كل تلك التسورات على السلطة - أن الشعب لا يملك قراراً لسياسة المال، ولا يمنع احتجاج المتسلط للمال وتكديسه في بنوك العالم ،

ولا يملك وسيلة مواصلات : لينظر ولو من بُعد أسوار قصور المسؤولين الباذخة المقفلة على بذخ وسرف وبخل لا يعبر منها طالب نوال ، أو حامل هم .. بينما الملك في تاريخ العالم - ثم في تاريخنا الإسلامي - تعلق مظهريته لهيبة الملك ، وتفتح أبوابه بالرحمات: فيشبع الجائع ، ويعود المكروب بالبذل وتجليه لهم ، وتعيش قطاعات من الأمة من عوام الرعية ، ومن فضلائها (كأهل المواهب ، وذوي الكلمة في قومهم) في حبور ورغد ؛ لاتساع فرص ونطاق العمل من جهة اتساعاً لا يحدده قرار إتاحة الفرص في القطاع العام أو الخاص .. كما يعيشون من جهة ثانية في حبور من أموال المسؤولين الخاصة ؛ لأن الكرم فيهم جبلة ، والرحمة طبع يُغذيه الشرع مع الوفاء لسلف الأمة ، والتقدير لمواهب الخلف .. هذه هي هيبة الملك وأريحته في تاريخنا العربي ، ولقد مرت بي كلمة - أظنها في بروتوكولات حكماء صهيون - تضحك مرحاً من مستقبل الجوييم (وهم يعنون المسلمين والنصارى) إذا أخذهم سحر الثورات، فحطّموا رموزهم الوطنية والتاريخية بأيديهم، وتنكروا لكل موروث.

قال أبو عبد الرحمن: وموجز القول: إن الثورات التي أنهكت الأمة أفرزت ملوكاً غير تاريخيين .. إلا أنه مُلك كله الأنانية والبخل ، وليس فيه شيء من الأريحية والرحمة.

والملوك والوزراء والأمراء في تاريخنا العربي والإسلامي يبقى لهم ماخولهم الله إياه من ولاية الأمر، ولا يحتجّون مالأً، بل يبذلونه: في أجنادهم، وأصحاب المواهب من رعيتهم، والفقير والعاني من عامة الأمة، ويتبنون المشاريع الخيرية .. وهذه المملكة لم تكن ملكاً تاريخياً فحسب، وإنما هي ملك تحالف فيه السيف والقلم لنصرة الدين، وإقامة دولته ، واشترائط مقتضى البيعة الشرعية.

وعندما قلت : إن حكومتها قامت خلال ثلاثة قرون على أعلى مثال ومطلب لما يحلم به من يحس الضياع في أطراف التركة الإسلامية العربية: فإنما أعني ما

أقول؛ فأمثل مطلب قيام حكومة إسلامية تحكم بشرع الله، ولا ينفصل دينها عن دولتها، ويكون معنى الإسلامية حضوراً علنياً في القضاء والفتوى والحسبة والممارسة والتربية والتعليم وأجهزة التنفيذ ، وأن لا يُمارس بقوة النظام أو بمهادنة السلطة ما علم يقيناً أو رجحاناً بطلانه شرعاً .. وهذا يعني أن النظام مغريل ويغري شرعاً، وهذا هو واقع المملكة منذ محمد بن سعود إلى فهد بن عبدالعزيز .. وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بحول الله ومشيئته .

ومن المطالب المثلث الشعور بالأمة العربية في آمالها وآلامها .. وهذه الجزيرة عربية صميمة مجتمعاً ودولة يُخشى عليها الحماس القومي أكثر مما يُخشى عليها التكر للعروبة .. بيد أن دستورها جعل الاعتبار للعربي حينما يكون مادة الإسلام، الحامل رسالته ؛ فكان الإسلام شرطها القومي، وكان الوعي بالشعبوية التاريخية ضد موروث هذه الأمة محركاً لطموحها، وكان الوفاء للغة الأمة ونشر تراثها أحد الحقوق الذي تعمل فيه قيادتنا بجلدٍ وسخاء .

ومن المطالب المثلث الطموح إلى الوحدة الوطنية ؛ فكان حاضرنَا أصدق وحدة وطنية لبلاد كانت ممزقة .. بيد أن وحدة الدين سلوكاً ومعتقداً هي شرط الوحدة الوطنية في رؤية قادتنا منذ محمد بن سعود إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن إلى فهد بن عبدالعزيز .

ومن المطالب المثلث أن يأمن الفرد في بيته وسوقه ، وأن يُؤخذ له حقه من ظالمة ، وأن يرفع عنه الظلم ، وأن تتاح له فرصة العمل الشريف ، وأن يُعان في كدحه لبلوغ رزقه الذي كتبه الله له بما أذن الله به من أسباب دنيوية يُعالج بها الفقر والمرض والجهل .. ودولتنا ومجتمعنا مثال نادر في تحقيق هذا المطلب بمن الله وفضله .

عبدالعزیز ومأساة الحق التاريخي :

٢ - والبديهة الثانية بديهة معنى الحق التاريخي لعبدالعزیز في تصميمه على الجهاد والمغامرة والفداء .. وبيان هذه البديهة : أن هذه الدولة الكريمة نالها هزتان كانت من أجلهما ذات ثلاثة أدوار .. الدور الأول معروف ابتداءً ، وهو دور الإمام محمد بن سعود إلى سقوط الدرعية في عهد الإمام عبدالله بن سعود .. وهو سقوط حدث على يد الأغيار المعادين في النحلة ، المدخولين في الملة .. ودخلت عناصر وطنية من جفاة البادية ؛ لما رأوه من عظمة القوة القادمة ، وما معها من وجوه الإغراء ؛ فهم ما بين خائف على نفسه ، وطامع في الحظ لنفسه .. ومنهم مَن إيمانه ووطنيته على حرف .. ودخلت عناصر قليلة من جفاة الحاضرة ممن عُوقب بما يستحق من إثم ؛ فأخذها موحدة على دولته ووطنه وأمته ودينه .

والدور الثاني على يد الإمام تركي بن عبدالله آل سعود ، وابنه الإمام فيصل بن تركي .. وكانت عدتهم وعتادهم عناصر وطنية خالصة تريد نعيم الدولة السالفة، وكان العدو المشترك الباشواتِ الدخلاء ، وأطماع بعض البادية في عودة السلب والنهب ، وحنين بعض المتديكين من أهل القرى إلى التجزئة .. وهي على ما عليه سلفها من الجانب الدعوي السلفي الذي يدين به جيش الإمامين ، وإنما وصف فيلبي هذا الدور بالسياسي الدنيوي لا الديني الدعوي؛ لأن الجهاد لطرد عدو مغتصب، ولرد أطراف من الرقعة إلى نطاق الدولة .. وليست لبيان حقيقة الدعوة ، وإقامة حجتها ، ودحض معارضها من خرافة وبدعة وأهواء وآراء ؛ فكل هذا متأصل في كيان الأمة ، وإنما المراد ردُّ الشارد إلى كيانه ، وطرد الطارئ الأجنبي .. ثم سقط الدور ، ولم يكن سقوطه على يد دولة دعوية تزعم الأصلح أو الأمتل ، وإنما كان قدراً كونياً بدءاً باختلاف وطني بين الأخوين الإمامين الكريمين عبدالله

وسعود ابني فيصل رحمهم الله، ثم استغله واستحوذ عليه ذحول وثارات القبائل ، وهادنه ونّماء وأظهر المحايدة عن شرعية السلطة من يريد التجزئة من زعماء بعض القرى ، ثم جاء الوافد الأجنبي بتدبير وزعامة مدحت باشا ؛ فكان السقوط بغيضاً تجزئياً مخرباً قسّم البلاد إلى إمارات داخلية ليس عندها فكرة الدولة ، ومشيخات قبلية تريد حياة الذحول والمناخات والسلب والنهب .. والتحالف التركي البريطاني على سيادة الأخيرة بحراً وبقاء سيادة الأولى براً محكوماً محدداً مراقباً في ذلك الجزء من الرقعة: اتضح فيما بعد أنه هزيمة لا غنيمة.

والدور الثالث على يد الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية ، وهو دور متميز في ظروفه الخائفة وفي خاصية قائده بميزات أربع .. الثلاث الأول منها عن الظروف .

الميزة الأولى : صعوبة الظروف خارجياً ، وهي أصعب من ظروف الإمام محمد بن سعود المؤسس الأول .. وتلك الظروف علمانية الدولة المهترئة ، وجنون النازية ، وأطماع دول الصليب باسم الحلفاء (ثم انقسامها إلى معسكر صهيوني شيوعي شرقي ، ومعسكر صليبي صهيوني غربي) .. وعدة الدول الطامعة المتحكمة في العالمين العربي والإسلامي ليست كعدة القوم أيام الإمام محمد بن سعود لو كان هناك نفوذ أجنبي؛ بل أخذت الدعوة حريتها في عهد الإمام محمد وابنه عبدالعزيز بعيداً عن النفوذ الأجنبي، ثم جاء النفوذ الأجنبي مزيجاً من تحالف يهود الدونمة وصنيعتهم بائع السجائر الأمي الألباني محمد علي^(١) وذريته، ومباركة وتعاون الدول

(١) قال الزركلي في الأعلام ٢٩٨/٦: «محمد علي باشا [١١٨٤/١٢٦٥ هـ - ١٧٧٠ - ١٨٤٩م]: محمد علي باشا بن إبراهيم أغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ، ألباني الأصل مستعرب .. ولد في قوله التابعة الآن لليونان ، وكانت تابعة للبلاد ==

الصليبية، ومهادنتهم للانتصار بمقدار.. وكان في هذه التجربة موعظة للإمام عبدالعزیز: إذ رأى سلفه الإمام سعوداً رحمه الله في حماس ديني منقطع النظير لعقيدته ودعوته دون تقدير للقوة الأرضية المادية المناوئة .

== العثمانية ، واحترف تجارة الدخان ؛ فأثرى ، وكان أمياً تعلم القراءة في الخامسة والأربعين من عمره ، وقدم مصر وكيلاً لرئيس قوة من المتطوعة جهزتها قولة تتألف من ٣٠٠ رجل ؛ نجدة لرد غزاة الفرنسيين عن مصر ؛ فشهد حرب أبي قير سنة ١٢١٤هـ ، وجمال الممالك ؛ فناصروه مع الألبانيين وأترك قولة ، وما زال حتى كان والي مصر سنة ١٢٢٠ في حديث طويل ؛ فغني بتنظيم حكومتها ، وقتل الممالك سنة ١٢٢٦ بوسيلة تقوم على الغدر كما يقول صاحب المجلد في التاريخ المصري ص ٣٠٥ ، وأنشأ السفن في النيل ، وضم معظم السودان الشرقي إلى مصر ، وأنشأ في الإسكندرية دار صناعة «ترسانة للسفن» ، واضطربت الدولة العثمانية ؛ لتوسع السعوديين في دولتهم الأولى بالحجاز وغيره ؛ فانتدبت كما انتدبت واليها ببغداد والشام لحربهم ؛ فكانت له معهم وقائع معروفة ، وشارك في حرب المورة ، واستولى على سورية ، ولم تلبث أن انتزعت منه بعد أن جعلت له الدولة العثمانية حكم مصر وراثياً سنة ١٢٥٧هـ .. وكثرت في أيامه المدارس والمعامل في الديار المصرية ، وأرسل البعثات لتلقي العلم في أوربة ، وكان يُحتم على من يدخل في خدمته من الإفرنج أن يتزوّوا بالزّي العربي (المصري) ، ويتكلموا اللغة العربية ، ويؤلفوا بها أو ينقلوا كتبهم إليها ، واعتزل الأمر لابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤هـ (١٨٤٨م) ، وأقام في قصر رأس التين بالإسكندرية مريضاً إلى أن توفي بها ، ودفن بالقاهرة .. ومما كتب في سيرته: البهجة التوفيقية ط لمحمد فريد ، ومحمد علي ط لإلياس الأيوبي ، ومحمد علي وعصره ط لعبدالرحمن زكي ، ومحمد علي الكبير ط لشفيق غربال .. وقال الزركلي عن مصادر ترجمته : «المصادر المذكورة في الترجمة، والنخبة الدرية ١٠-١٦ وفيه ص ١٩: وفاته في أواسط رمضان ١٢٦٦هـ الموافق ١٨٥٠م.. وعنه أخذت في الطبعة الأولى ، وصححته بما عليه أكثر مؤرخيه ، والكافي ٩٤/٤ ، وأعلام الجيش والبحرية ١/١ - ١٥ ، وتاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ٧٤ - ١٤٠ ، ورسائل سائر محمد سليمان ١٩٦-٢٠٨ ، ومصر في القرن التاسع عشر لإدوارد جوان ٢٩٩ وما بعدها ، والمجلد في التاريخ المصري ٣٠٥-٣٣٩ ، وصفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي لعمر طوسون ، وبناء دولة ٦٨٥ وتاريخ مصر في عهد محمد علي لفليكس مانجان» .

والميزة الثانية: صعوبة الظروف داخلياً من ناحية الفقر وقلة العدة والعتاد، ومن ناحية الإحراج من مجتمع أُمِّي لا يريد أن يتعلم، ولا يريد أَوْجَهَ المدنيَّة.. ومن مجتمع بدوي لا يقيم وزناً للقوة المادية حتى كانت تجربة طائرات الصليبيين ومدافعهم بالجهر، وكان منطق عبدالعزيز - الذي يستتبطه الدارس - : لم أمر بها، ولم تسؤني.. ومن علماء قصرت خبرتهم، وبهرهم الوافد الجديد، فوقفوا منه موقف المحرَّم لمظاهر تمدنية كثيرة .

والميزة الثالثة: صعوبة التحرك الديني عقيدة وشريعة بعيداً عن الضغوط العالمية الخانقة مع التصميم على سيادة الدين قضاءً، وفتوى، وتعليماً، وإعلاماً، وحصر الخيار في أحد أمرين: إما تحقيق هذه الغاية، وإما الاستشهاد في سبيلها .

قال أبو عبدالرحمن : ومن هذه الميزات الثلاث تواسجت عناصر المغامرة والتضحية ابتداءً ، ثم عناصر الجهاد الشجاع العاقل الذي يرافقه جهاد سياسي فكري (ليس أقل خطراً) لأطرافٍ كافرة قوية تريد لأمتها مالا يريد لها، وتريد منه مالا يريد من نفسه؛ لأنه محكوم بولاءٍ صادق، وامتنال دقيق لدينه وعروبته.. ووطنيته لا يعلوها أدنى غبش؛ فكان دوره رحمه الله جامعاً لهموم الدورين السابقين : الجهاد العسكري الوطني ، والجهاد الدعوي .. وبديهة الحق التاريخي لعبدالعزيز أنه همُّ جماعي مصلحي ، وليس همّاً فردياً نفعياً .

لقد أذن الله لهذه الأمة في جزيرة العرب - بعد أعباء من الجهل ، وغبش في العقيدة ، وغربة عن السنة ، وعذاب متجدد من الفتن والتبدد والمسغبة وذهاب الريح - بإمام صالح راشد جدّد للمسلمين حياة كريمة بالرجوع إلى الدين عقيدة وشريعة ، وذلك هو محمد بن عبدالوهاب ومن ظل قائماً على عهده من أحفاده وعلماء أمته .. واختار الله لحماية عقيدة الإسلام وشريعته (التي دعا إليها محمد

ابن عبد الوهاب) والدعوة إليهما وتطبيقهما في الدولة والمجتمع ملوك آل سعود رحم الله من سلف منهم ، ورحم الخالف منهم ، وهده ، وسدده .. وكان تاريخهم مديداً تعرضَ لهزّات عنيفة قمينة بتقويض الجذور لو لم تكن ضاربة في أعماق الولاء لدين الله وتاريخ أمة الإسلام ؛ فلقد أعاد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود شباب الدولة بعد قسوة الأتراك العنيفة الظالمة .. ثم أعادها سلفية - مع الإبقاء على هيبة السلطان - الإمام عبدالعزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي رحمهم الله بعد الاختلاف وذهاب الريح .. وكل ناشئ في هذه الجزيرة يلزمه لعبد العزيز ما هو لازم للأب والمعلم والسلطان والعالم ؛ لأنه حكم الشرع ، وحرّر النفوس من تديك أمراء القرى ومشايخ القبائل وغطرسة القوي ، وأشاع التعليم ومحو الأمية ، وهياً الله له وهياً لمن خلفه وسائل تضمن الكسب الحلال وسبل الحياة الكريمة الشريفة .

إنه يوجد الزعيم القوي وتكون قوته وبيلاً على الأمة ، ومأساة لمصيرها ؛ لتخلف عناصر الإيمان والخير والرحمة والعلم والبصيرة .. ويوجد المؤمن الفاضل ولا يقوى على سياسة أهله وولده ؛ لتخلف عنصر القوة .. وكل منعطفات التاريخ تُلقى اللوم على جهل الجمهور ، وعجز القيادة الخيرة ، أو خيانة القيادة القوية !! .

وقبل وجود عبدالعزيز كان للأمة في الجزيرة العربية دولة قائمة اختارتها الجماهير بالبيعة الشرعية ؛ لتكون منفذة وقوامة على دستورها الذي بلغه رسول الله ﷺ عن ربه ، وبلغه من كل جيل عدوله إلى أن جدد تبليغه الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب بعد أن كادت تنمحي معالمه من بعض أجزاء هذه الرقعة ، وبعد أن كثر كدره في كثير من أجزاء الرقعة .. وكل الأمة تعتقد وتشعر أن للأسرة حقاً واجباً من الولاء والمحبة ؛ لتحملها أعباء الدعوة ، واستمرارها في الصمود لها .. وسيظل

حقها ديناً شرعياً ما ظلت البيعة على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ؛ استمراراً
لعهدا التاريخي الطويل المجيد .

وبعد الفتنة العمياء في عهد أبناء الإمام فيصل بن تركي رحمهم الله خلت
الجزيرة من ذي كفاءة يوحد الراية ويؤسس الدولة ، وإنما كانت المنطقة مراكز قوى
متفاوتة السلطة والجبروت أعلاها حاكم مقاطعة ما ، وأدناها أمير القرية ،
وأوسطها شيخ القبيلة .. وهذه المراكز في مختلف صورها زعامات قبلية فردية لم
يصحبها بناء دولة ، وتوجّه حضاري في ميادين الحسبة والتعليم والتجارة والاقتصاد
والدفاع .. ولم تسع هذه الزعامات إلى رفع غبن الأمة فيما تعانيه من جهل ومرض
وتخلف وعي سياسي واجتماعي، وكان مقياس هذه الزعامات الانتصار في غارة
قروية أو قبلية مبيرة لغير غرض من الوحدة، وإنما الدافع السلب والنهب، أو غير
زعيم من وجهة زعيم، أو تجديد ذحول وثورات.

ويتموج في الجزيرة ذوو فروسية وشهامة يعدلون الموازين بإذن الله ، ولا
يُقاس فارسهم بألف من غيرهم ، ولكن هذه الفروسية كانت شراً ووبالاً ؛ لأنها
أعادت سيرة الجاهلية الأولى في النهب والسلب وقطع الطرق والإخلال بالأمن ،
وكانت الدماء الزكية تراق هدراً، وكان مقياس التجمع اعتزاء عشائرياً دون شعور
بانتماء الأمة الواحدة والأخوة الإسلامية المقدسة .. وسبب كل ذلك جهل الرعية،
وغياب القيادة القوية المؤمنة التي توظف هذه الحيوية الفروسية لبناء الدولة .

ويتردد على الألسن وفي الكتب : أن عبدالعزيز جاء من الكويت ؛ ليسترد ملك
أجداده .. وذلك (وهو حق تاريخي بلا ريب ، وهو باعث من بواعث مغامرة
عبدالعزیز بلا ريب أيضاً) : لم يكن كل الحق ، وليس هو أم البواعث ولا جميعها ؛
ذلك أن لدينا ظاهرة تاريخية حكمت تصرفات عبدالعزيز طيلة بنائه للدولة خلال

نصف قرن : تلك الظاهرة مبدأ يترجم نيات^(١) عبدالعزيز وبواعث مغامرته .
وهذا المبدأ هو الإطار الذي حكم تاريخ عبدالعزيز ، وقد ترجم لنا أن منطلق
عبدالعزيز من الإيمان بعقيدة ثابتة لم تتغير طيلة حياته ، وهي باعث مغامرته ؛ فهذا
تصرفه من خلال إيمانه .

وبدأ مغامرته وهو يملك عقلاً حضارياً موهوباً يؤمن بتعدد صور المواجهة
والمعاناة ، ولا يجمد على نمط ، ولكنه لا يختار صورة غير فاضلة وإن شرفت الغاية ؛

(١) قال أبو عبدالرحمن : درج المعاصرون على قولهم : «نوايا» ، ولقد أقر مجمع اللغة العربية
بدمشق في الجزء الثاني من المجلد «٥١» هذا الاستعمال ، وحجتهم :
١ - حمل النوايا على الطوايا جمع طوية ، وهي بمعنى النية .

٢ - ثمة أمثال نية جمعت على غير صيغة نيات بصيغة أخرى غير صيغة نوايا مثل حرة على حرائر .
٣ - أخذ اسم مفعول من نوى تلحقه التاء وهو نُويَّة على وزن فعلية بمعنى منوية فالجمع نوايا .
وأبى ذلك الأستاذ محمد العدناني ؛ بحجة أن أصل نية نُويَّة - بكسر النون ، وسكون الواو - ؛
وليس هو نوية (بفتح النون وكسر الواو) .. انظر معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة ص ٦٨٧ ،
ومعجم الأخطاء الشائعة ص ٢٥٦ .

قال أبو عبدالرحمن : فعل النية نوى .. وبالاستقراء اللغوي اتضح لي أن الأصل في معناها
اللغوي القصد عن بعد ، ومن ذلك اشتق معنوياً إضممار القلب المسمى نية ؛ لأن ذلك يسبق
القصد إلى مكان بعيد مع مشقة السير .. وعن تصريف النية من نوى انظر تاج العروس
٢٠/٢٦٦ .. وليس هذا الخلاف ذا أثر في محل النزاع ههنا ، بل أخلص إلى أن النوية - على
وزن الطوية - بمعنى المنوية صحيحة الصيغة وإن لم تُسمع مادةً من نوى ؛ لأن الصيغ ثابتة
عند العرب ؛ والعربي يُحول المعنى إلى الصيغة التي يريدها - إذا لم يمنع مانع صرفي - ،
ورواة اللغة عاجزون عن إحصاء كل مفردة نطق بها العرب على كل صيغة .. وهذا يعني أن
النوية على وزن الطوية صحيحة وإن لم تسمع مادة ، ولا مانع من تحويل النية إلى صيغة
الطوية إذا أُريد اسم المفعول ؛ إذن النيات جمع نية التي أصلها نوية - بسكون الواو - ،
والنوايا جمع نوية بكسر الواو - وهي بمعنى اسم المفعول منويَّة - ، وجمع المنويَّة منويات .

فهذا تصرفه من موهبته ؛ إذن ليس الباعث الوحيد لمغامرته أن يسترد حقاً تاريخياً لجده فيصل أو أعمامه أو أبيه عبدالرحمن رحمهم الله؛ ذلك أن من عايشوا عبدالعزيز - وهم أشياخ من العوام رجال صدق وفطرة لا يعرفون الترويج الإعلامي - يشهدون أن عبدالعزيز في أعظم الأزمات يستخير ربه بعلمه، ويستقدره بقدرته، ويشترط في دعائه لربه: أن يكون فيه صلاح للإسلام وأهله ورحمة للأمة ؛ فليست هذه صفة من باعث مغامرته استرداد ملك أجداده .

ويشهد تاريخه رحمه الله أنه لم يأب الصلح قط إذا عرض عليه وإن كان في مركز القوة .. مع أن الصلح يرهقه بالتزام العهد لمن لا يسره أن يتسامح معه ، ثم لم يؤثر عنه قط أنه خاس بعهد ؛ بل إنه في غير حالات الصلح والمعاهدة يقدم جانب العفو والتسامح ، ولا يلجأ إلى العقوبة في أكثر الأحوال إلا بعد النكث وتكرر المخالفة .. وليست هذه صفة من يثار لحق تاريخي .

إن الحق التاريخي - الذي يُصرّح به الملك عبدالعزيز نفسه أحياناً - مجرد مناسبة تاريخية هيأت لعبدالعزيز المغامرة للمطلب الأسمى، وهو أن يزيل عن أمته غبن الجهالة والتخلف والمرض والفروسية الممزقة وتديك الزعامات الجزئية ؛ لتكون لهذه الأمة دولة ذات رقعة واحدة وجيش واحد .. إنه في إيمانه تلميذ أمين لعقيدته ليس عنده ما يبتكره في دين ربه ؛ لأن دين الله اتباع لا ابتداع ؛ فجمع أمثال علماء الوطن ، وأشعرهم بواجبهم في ولاية الأمر ، وحملهم واجب تخصصهم العلمي ، والتزم لهم ولأمتهم أن يكون منفذاً لما يقضي به النص الشرعي أو الإجماع المعصوم أو الاجتهاد الراجح أو شورى ذوي الحل والعقد في النائبة الجزئية .. مع أنه كان مثل أحدهم فقهاً في الدين ، ولكنه تفرغ لما لا يقوى عليه غيره من تحقيق الخير للأمة بعد جمع شملها .

لم تكن انتصاراته العسكرية التي فجَّرها في أنحاء المملكة غزو زعيم عشائري أو حاكم بالسلطة - كما هو الواقع في البيئة الممزقة التي جاء لتوحيدها - ، وإنما كان يصحب تفجييره العسكري عقلٌ حضاري ووعي بأحداث العالم من حوله ؛ فكان يشفع كل انتصار عسكري بأهداف الانتصار ذاته (وهو المعطيات الحضارية، والواجب الديني) : من فتح المدارس والمصحات ، وتنظيم الشؤون المالية والإدارية والفنية والقضائية والتنفيذية، وتوظيف الفروسية الممزقة ؛ لبناء الدولة ، وإقامة الأمن، وإشاعة العدل، وحفظ الحقوق العامة والخاصة، واستبدال الكسب الحرام - من النهب والصوصية - بالرزق الحلال (من استثمار الحرف والمواهب والمهارات وإيجاد الفرص) .

وقد عاين أُلطاف الله تصحبه - مع ضعف قوته العسكرية في كثير من المواقف - ؛ فتحقق له بذلك اللطف الإلهي: القوة، والعلم، والإيمان.. وكل ذلك منحة من ربه.. ولكنه كان يعلم أن أعمار الأمة المحمدية بين الستين والسبعين وهو لن يبقى معمرًا للأمة ، ويخشى عليها انتكاسة كل مجتمع يسوده التخلف والجهل ؛ لهذا كان تمدين الأمة ، وتعليم ناشئتها ، والتدرج بهم من مستويات التعليم المختلفة ، وتوجيه فروع العلم حسب اختلاف الميول بما يضمن الوعي العلمي بكل حقل في محيط حاجة الأمة الراهن ، وفي نطاق تطلُّعها إلى ما ستشرف عليه من رقيٍّ الأمم الأخرى .. كان ذلك كله هو شغله الشاغل، وهو ما تفرغ له كلياً بعد استراحتته عسكرياً على قلة ذات اليد وضعف في الموارد .

وفقهه في دين الله ، وعقله الحضاري ومواهبه .. كل ذلك جعله يقف موقفه القوي المؤمن دون تزلُّت ترفضه سماحة الدين ، ودون تسيُّب تأباه عزائمه ؛ فكان رحمه الله والدًا ومربيًا ومعلمًا لكل فرد من أفراد هذه الأمة ؛ فيفضل الله أولاً

وقدرته ، ثم بما منحنا إياه من بركة عبدالعزيز وعزائمه: أمنت سبلنا ، ونعمت أسرنا بالراحة النفسية ورغد الرزق ، وزالت عنا ظلمة الجهل والتخلف ، ووجدت الفرص لكل عامل بحسبه ، وتهياً لكل فرد أن يتربى شعوره بالأمة العربية الإسلامية الواحدة .. ومثل هذا الشعور كان قبل عبدالعزيز مفقوداً ؛ إذ كان الشعور قَبْلِيّاً كما أسلفت .

إن ما نعيشه الآن من نعمة في الدين ، والرزق ، والمال ، والعرض ، والنفس ، والتمية هو الحق التاريخي الصحيح الذي حفز عبدالعزيز على المغامرة ؛ فاتخذ استرداد ملك أجداده مناسبة ظرفية .. والذين خبروا واقع الأمة العربية والإسلامية منذ ثورة نابليون حتى الآن يعلمون علم اليقين أن حق عبدالعزيز التاريخي هو ورقة العمل الرابحة لكل إصلاح منتظر في أجزاء العالم العربي والإسلامي .. وورقة العمل هذه التي خط عبدالعزيز سطورها بحروف من نور هي بناء دولة صميمة في عروبتها ، قيّمة على دينها ومصالح أمتها .. إنها الدولة المتسمة بالثبات في تاريخها وعقيدتها مع تجدد عقلها الحضاري وعطائها الإنمائي .

السيرة تُبين السَّريّة :

قال أبو عبدالرحمن : لنبحث جزئية من مسألة الحق التاريخي ؛ لنرى كيف كان مجرى ذلك الحق في الأحداث ، وتلك هي إنقاذ الملك عبدالعزيز للأحساء من أطماع الحلفاء ؛ ففي آخر سنة ١٣٣١هـ نشرت مجلة لغة العرب مقتطفات من مقابلة أجراها إبراهيم عبدالعزيز الدامغ مع الملك عبدالعزيز رحمه الله ، وكانت نُشرت في الدستور كاملة ، وموجز معناها من نص كلام الملك عبدالعزيز وبلسانه نفسه ما يلي:

- ١ - أن الأحساء حق تاريخي اغتصبته الدولة العثمانية .
- ٢ - أنه انتزع من دولة مسلمة (أحيت دعوة السلف) بغير حق.. بينما النفوذ الأجنبي ممتد على السواحل المجاورة : فكيف تؤخذ البلاد من دولة مسلمة ويترك للنفوذ الصليبي الأجنبي حريته ١٩.. قال أبو عبد الرحمن : بل هي أمثل دولة مسلمة.
- ٣ - اختل الأمن بولاية الأتراك ، وعمت الفوضى ، وصارت الغلبة لقطاع الطرق .. وتظلم الأهالي يُرفع إلى مقام الولاية ؛ فلا يُسمع له صدى .
- ٤ - أن الأهالي طلبوا من عبدالعزيز مراراً أن ينقذهم ، فأضرب عن طلبهم إذعائاً للدولة وإن كان يسوؤه تردّي أوضاعهم .
- ٥ - جاءته مضايقات تحمل توقيعات الأهالي .. ونص العلماء والوجهاء لعبدالعزیز : «إن لم تسعفنا نضطر إلى ما لا تُحمد عقباه» .. وخلال ذلك كان إعلان الدولة بتخليها عن خليج العرب وسواحلها .
- قال أبو عبد الرحمن: كانت الثعبان العجوز بريطانيا تغفر فاها لانتقام منطقة الخليج.
- ٦ - سرَّح عبدالعزيز موظفي الإمارة التركية حتى وصلوا إلى بلادهم محافظاً عليهم دون أن ينالهم أذى .. يقول عبدالعزيز : فهذه هي الأمور التي ساقطني إلى ما أتيت ؛ فقدمتُ الأهم على المهم ، وسرَّحت موظفي الإمارة محافظاً على حياتهم بدون أن ينالهم أذى .. وعليه إذا أنعم النظر رجال الدولة المخلصون في هذه المسائل، وفكروا في مآلها أحسن التفكير، وأعطوا لكل ذي حق حقه، ولاحظوا الأمن الضارب أطنابه في البلاد، وتثبتوا مما انتشر من مراقق العمران بين العباد: حبذوا عملي هذا.. ولا سيما إذا علموا أنني قطعت دابر الأشقياء المفسدين، وحقنت دماء الأهلين، وبسطت أروقة الراحة بين العالمين .

قال أبو عبدالرحمن: من ألقاب عبدالعزيز الكثيرة عند أهل نجد: سظام، ولطام، ومعرّي، ونايف، وأخو الأنور، وأبو الليل، وأبو الليول، وأبو المساري؛ لأنه خمسين عاماً يذرع الجزيرة بالسرى ليلاً، وأكثر فتكاته بيّاتاً.. وفي عام ١٢٣١هـ سرى أبو الليل سراً بثلاثمائة^(١) من منتخب رجاله، وقطع مسافة خمسة أيام في يوم ونصف يوم، وهلك بعض رجاله.. وبمنتصف الليل أناخ ركابه خارج سور الكوت في الهفوف، وتسلق برجاله (خلال سلالم أعدها الأهالي كآل القصيبي)، وأخذوا من الجنود الأتراك سلاحهم وهم نائمون، واعتصم موظفو الأتراك بالمسجد؛ فأمنّهم عبدالعزيز على أن يرحلوا إلى البصرة من طريق العقير.

قال أبو عبدالرحمن: لست ههنا بمعرض التاريخ لتوحيد الأحساء مع أجزاء الجزيرة، وإنما غرضي مصداقيةً مَثَلٍ عربي استشهد به الملك عبدالعزيز في خطابه التاريخي في ٢٢/٥/١٣٤٧هـ في افتتاح الجمعية العمومية في الرياض.. استشهد في هذه الخطبة على صدق نيّاته بالمثل: السيرة تُبين السَّيرة !!.

إنني آخذ ومضات عن مصداقية هذا المثل؛ فأجد أول ما أجد: أن تربية عبدالعزيز ليست تربية أعرابي عاش على النهب والسلب لا يهمله على أي شيء كان قاتلاً أو مقتولاً، ولا يعبأ بحسن الخاتمة.. وإنما هو ابن أسرة حاكمة عربية سلفية عاش في حضانة المشايخ، وتفقه في دين ربه.. ومعلوم بالتجربة أن من نشأ هذه النشأة لا تساوي عنده الدنيا كلها أن يغامر من أجلها فيموت ميتة جاهلية.. وثاني ما أجد أن الملك عبدالعزيز غامر وباغت في آن واحد.. ومن أمهات المغامرات فتحه للأحساء، وقبل ذلك فتحه للرياض؛ فهذا مُؤشِّر - يكذبه الواقع أو يصدقه فيما

(١) الرسم المعتاد ثلاثمائة.. ولتضليل هذا الرسم صار بعضهم ينطق بالألف.

بعد - على أن لعبد العزيز مطمحاً في توحيد الأمة ، وإعادة الحكم بمنهج السلف .. وهو أمر إن مات دونه فهو شهيد : ولهذا سهلت عليه المغامرة .

إن عبد العزيز لم ينتدب الخبراء ليستشيرهم في صنع منهج أو دستور أو ميثاق ، وإنما كان منهجه معه واقعاً وبيئةً ، وتَشْيئة وإراثاً .. لقد جمع أهل العلم وحملهم مسؤولية البيان ، وهو يصدر عن حسٍّ أصولي ؛ ففي خطبته المذكورة آنفاً قال : « لكل من تكلم بالحق منكم فله عهد الله وميثاقه أنني لا أعاتبه وأكون ممنوناً منه ، وأني أنفذ قوله الذي يُجمع عليه العلماء ، والقول الذي يقع الخلاف بينكم فيه (أنتم أيها العلماء) فإنني أعمل فيه عمل السلف الصالح ؛ إذ أقبل منه ما كان أقرب إلى الدليل من كتاب الله وسنة رسوله أو قول لأحد العلماء الأعلام المعتمد عليهم عند أهل السنة والجماعة .. إياكم أيها العلماء أن تكتموا شيئاً من الحق تبتغون بذلك مرضاة وجهي ؛ فمن كتم أمراً يعتقد أنه يخالف الشرع فعليه من الله اللعنة .. أظهروا الحق وبينوه وتكلموا بما عندكم» .

قال أبو عبد الرحمن : فالملك عبد العزيز يملك الحس الأصولي إجمالاً ، ويملك كثيراً من تفاصيله .. وما لم يتفرغ للتخصص فيه يناقش فيه أهل العلم بعد استشارته لهم .

وثالث ما أجد : أن حرية الرأي - بأي شكل كان شعارها - ليست غريبة عن البيئة ؛ فالمجتمع القبلي نفسه يقوم على مشورة شيوخ العشيرة .. وشعر العرب وحكمتها مليئٌ بذلك .. قال الأستاذ محمد جلال كشك : « هو الحاكم العربي الوحيد الذي أحاط به مستشارون من معظم الجنسيات العربية ، وكان ديوانه أول وآخر مجلس حكم (منذ الدولة العباسية) وجد فيه المصري والسوري واللبناني والليبي

والعراقي والفلسطيني ، وكانت لهم جميعاً مزاياهم، وخدموه بإخلاص إلا فيما ندر، وفي أواخر أيامه .. وهم كأى تجمع عربي كانوا يعانون من الحساسيات الإقليمية والمزاحمة فيما بينهم ، ولكنه استطاع أن يكون منهم مجموعة متناسقة تعمل وفق إرادته ، وفي إطار ما يخطط .. لم يستطع مستشار مهما كانت مكانته ، ومهما بالغ في الظن بأهمية نفسه : أن يفرض عليه خطأ سياسياً لا يرضاه ، أو أن يزج به في قضية إقليمية على هوى المستشار ؛ حتى إن حافظ وهبه كان يفتخر أو يعتذر بأنه في مصر وطني يعادي الإنجليز .. أما في بلاط عبدالعزيز فيعمل بإخلاص لتدعيم صداقة السعودية وبريطانيا .. وهكذا الرجل العظيم يدير رجاله ، ولا يديره المستشارون .. ولكن لا يجوز أن نفهم من ذلك أنهم كانوا إمّعات ، أو تمثلهم الصورة البشعة التي نقلها العطار عن يوسف ياسين ؛ إذ نسب إليه قوله : «كنا بوسطجية ننقل عبقرية عبدالعزيز» .. بالعكس كان يتخير الرجال الذين يملكون استقلالية الرأي، والقدرة على تقديم المشورة الحقيقية .. لا أن يحيط نفسه ببني وي وي (١) كما كان الجزائريون يقولون عن نواب وموظفي الجهاز الاستعماري من الجزائريين ؛ ففرق بين المستشار والخادم .. وهو كان يُحذّر من دولة الخدم الذين - كما تُؤكّد خبرة التاريخ - ينقلبون إلى مستبدين بالسلطة على نحو تفوق نتائجه ما تخوّفه الحاكم من المستشار الحر، ومعروف تحذيره لأولاده ومعاونيه من سيطرة الخدم (٢) ، وضريه المثل بدولة عمه عبدالله بن فيصل الذي أساء خدمته معاملته الناس ؛

(١) وي : تعني نعم بالفرنسية كما نقول نحن جماعة : موافقون موافقون .. أو الذين لا يعارضون الحاكم أبداً [كشك] .

(٢) يمثل ذلك رسالته رحمه الله لأميره على المدينة المنورة عبدالعزيز بن إبراهيم .. وهي في كتابي «آل إبراهيم الفضليون» ص ٢٦٥ - ٢٧٠ [ابن عقيل] .

فانفضوا من حوله ، وكتب إلى صهره السديري : «وتدري الخدام إذا صار لهم مدخل بالأمر دوروا مصالحهم وعفاناتهم ، وهذا كله شيء بطل» (١) .

وسنقدم أمثلة من معارضة مستشاريه .. وخاصة المصري الذي كان أحياناً يتجاوز حده في النقد والمعارضة ؛ مما يثير رُعب بعض المؤرخين بعد نصف قرن؛ فلا يصدقون روايات المستشار لولا أنها نشرت في حياة عبدالعزيز .. كما كان يحترم مسؤولياتهم ، وقد أبدى دهشته من تجاهل الملك حسين لوزير خارجيته بإبرام المعاهدات من غير علمه .. ولم تكن دهشته مصطنعة ، ولا لإثارة وزير خارجية العدو ؛ فهو نفسه يصدر أمره لوكيله في الكويت النفيسي بأن يحول جميع المراسلات التي تصل من الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت ، أو ديكسون المقيم البريطاني إلى ممثله السياسي حافظ وهبة ، ويأمره - أي حافظ - : فتكسره .. أي تفتحه ، وتشرف عليه ؛ لتعلمنا برأيك فيه ، ونعرف خطتك التي تمشي عليها .. كما أشرنا في غير هذا الموضع إلى عرض رده على الحكومة البريطانية على مستشاره ، وكتابته بخطه: إنه أخذ بنصيحة المستشار ، وكتب الرد كما اقترح المستشار» (٢) .

قال أبو عبدالرحمن: ديننا أمر بالشورى ونظمها ، والملك عبدالعزيز رحمه الله يطلب من رعيته حرية الرأي من منطلق التنظيم الشرعي للشورى؛ ففي الخطبة

(١) برقية رقم ٣٨٤٣ بتاريخ ١٦/٥/١٣٥٥هـ - أغسطس ١٩٣٦م من تسجيل خاص يحتفظ به الأديب الفاضل الشيخ عبدالله السديري رئيس مجلس إدارة جريدة الجزيرة .. ومعروف سيطرة المساعدين الخصوصيين على المسؤولين والسياسيين ؛ فليس المقصود هنا أي موقف تطبيقي ؛ بل التحذير من إخضاع السلطة للعواطف الشخصية والشهوات الرخيصة والعقليات المحدودة كما حدث في أواخر خلافة العباسيين ، وفي حالة الملك فاروق ؛ بل ورئيس وزراء بريطانيا الذي خضع لسكربتيرته [كشك] .

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٤ - ٣٥ و ص ٧٦٨ .

المذكورة آنفاً نص بأن لا يخاصم أحد أحداً في رأيه .. وفي خطبة له بمكة طالب كل فرد بأن «يقول ما يعتقد فيه منفعة» .. نعم إن السيرة تبين السريرة .. ولو كان عبدالعزيز ناشد ملك فحسب، وطالب ثأر فحسب : لكان يلتبس منهجاً وضعياً يتفسر كما يشتهي من خلاله .. والواقع أنه جمع العلماء ، وحملهم مسؤوليتهم، وفتح المحاكم الشرعية وأعلنها سلفية .. والشرع يمنع من الظلم والنزوات ، ويقدم مصالح الأمة .

ويلاحظ أن الدولة العثمانية في أعقاب خلافتها الإسلامية ارتكبت وفرضت ما لا يرضي الله من أمور تخالف سيرة السلف ومعتقدهم (وهي أمور أشار إلى بعضها الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد رحمهم الله)، وجندت عامياً أمياً جلفاً من صنائع الدونمة هو محمد علي ودعيه إبراهيم .. وهو الذي جرأ الدولة الصليبية على الخلافة، وفتك - باسم الخلافة - بأهل الدعوة في الجزيرة، وعطل معالم الشريعة^(١) .. وكان حكم الدولة العثمانية للأطراف حكم جباية أموال فحسب، ومع هذا فكان موقف عبدالعزيز من الدولة - على الرغم من كل تلك المظالم - موقف من تحكمه العاطفة نحو تاريخ الخلافة قديماً ، وقد بين علي فؤاد باشا في مذكراته ثمرة موقف عبدالعزيز الحيادي في الحرب العالمية الأولى بأنه كان في صالح الدولة، وبين أن عبدالعزيز قريب من المراكز البريطانية مما يجعله دوماً عرضة لانتقامهم .

قال أبو عبدالرحمن : ولو كان عبدالعزيز صاحب ثأر فحسب لكانت فرصته أن لا يحايد، ولكنه رحمه الله لا يبيع دينه بدنياه .

(١) انظر : ما ارتكبه إبراهيم باشا من موبقات في حق أتباع الدولة السعودية الأولى وأئمتها وأمرائها في تاريخ مصر في عهد محمد علي لمؤلفه فيلكس ما نجان ، وقد ترجم منه ما يخص الدولة السعودية الأولى ونجد وحملات محمد علي على الجزيرة العربية وتشره دارة الملك عبدالعزيز .

عبد العزيز وهموم التمزق العربي والإسلامي :

وأخطر تاريخ للأمة العربية ، وأرهفه حساً : تاريخها الحديث ، وما قُبِله من عصور ضعف بني عثمان .. ولكن أخصبه حساسية وخطورة هو ما بين ١٩٥٦م و١٩٦٧م وما بعينه من أعوام !! .. في مدة الأحد عشر عاماً الأولى تجلى عنفوان الطموح العربي ، وأصبح كل منبر يُلوّح عليه خطيب عملاق الذراعين (واحدة تجذب أقصى المحيط ، والأخرى تدفع طرف الخليج) ، وكاد العربي يبطش - بالبلاغة العربية في خيالاته وتحديه !! - بالقوى العالمية الضاربة في البحار والأجواء .. وتجسّد مجد القبيلة في مجد الدولة ؛ فقد كان الزعيم العربي إذا غضب غضب له مئة ألف سيف، ورأينا الخطيب إذا غضب غضب له ما ينيف على أربع عشرة راية تحتها ملايين السيوف .. وانقسمت المشاعر على ثلاثة أنحاء : مشاعر قسم أصيل المعدن، صادق الولاء، عظيم الاعتقاد بأن المجد العربي لا يموت.. ولا عيب فيهم إلا حسن النية المطلق ، وغرة الكريم ، والتزام زاوية واحدة للرؤية والإيمان الراسخ بحتمية التجربة الجديدة وأنها المخلص .. اختاروا للإعلام في الوطن العربي الأم زاوية واحدة للرؤية والسماع .. لم يدر بخلدهم قط أن الإعلام يمعن في التغرير بهم، ويبالغ في اختلاق المكاسب وتهويلها .. ولم يخطر ببالهم قط أن ما يرونه قشة تطفح على جانب التيار، ولم يعادلوا قط معادلة حسابية بين الهتاف الإعلامي الكلامي عن نسيج الميثاق، وأخوة القومية، ومبادئ الاشتراكية، وأثر ذلك في التحام الأمة .. وبين الواقع العملي من تمزق في الصف ، وتناحر على السلطة ، وحلم كل روبيضة بالتحرك .. وأحصى الدارسون يوماً أن خسائر وفوداح التقلب على الكراسي كلّفت ما لم تكلفه مواجهات عسكرية عديدة - لو وجدت - مع

عدو مشترك، وأهدر إذلال الزنزانة ومخاوف التغريم والتشريد كفاءات ومواهب علمية قامت وتقوم عليها بعد الله قدرة الأمة .. وفي فورة الحماس الأعمى للإخوة القومية نسي هؤلاء أن هذه أول تجربة عربية على الأرض العربية بعد أمجاد التاريخ الإسلامي ، وأنها لا يمكن أن تكون تجربة صحيحة ؛ لأنها خلاف سنة التاريخ ، ولأن الأخوة القومية افتراض عقيدة وليست ممارسة لعقيدة واقعية ، وأن رقعة العالمين الإسلامي والعربي منحة إسلامية وليست إرثاً قومياً ، وأن القومية قبل التجربة العربية من تدبير الكواليس، وأن الأمم التي مزقتها القوميات سابقاً لم تغنها قوميتها، وبدأت تجتمع : إما على مبادئ أيديولوجية ، وإما على استحياء دين صوري ، وإما على منافع تحليلية .. ونسي هؤلاء الخيرون أن القومية التي تحمسوا لها أعظم خطراً سيسمع دويّه الأمم بعد أحداث عام ١٩٦٧م ؛ لأن الولاء للأخوة القومية مشروط بفصل الدين عن الدولة والحياة (أي العلمانية) .. ونسي هؤلاء أن منطق القومية العربية لن يكون أقوى من منطق الأقليات ، ونسي هؤلاء أن منطق القوميات المفترض ليس ألصق بالقلوب من منطق الأديان الممتزج باللحم والدم ، ونسي هؤلاء أن دعاية القومية أوجدت الأحقاد والطائفية في الصف العربي ، وأن البيوت المتخذة للعبادة ذات النواقيس أصبحت تستعمل ترسانة للأسلحة منذ ذلك الوقت .. والعربي البليد يلمس بيده اليوم الانشقاق الطائفي العاثب بقدر الأمة في مختلف أجزاء الرقعة .. ونسي هؤلاء أن قائد الأمة ومعلمها ﷺ (وهو أصح الأمة نسباً ، وأصرحها عروبة) نهى عن دعاية الجاهلية ، وأنه لا خير في تجربة حذر منها شرعه .. ونسي هؤلاء أن الرقعة بلد المسلمين ، وأن دينهم مثالي على خلق عظيم يضمن حق المواطنة للأقليات الطائفية والدينية .. ونسي هؤلاء أن الاستسلام للقومية استسلام لمغالطة المنطق للدول المنتصرة التي اقتسمت تركة الخلافة

الإسلامية! .. ومنطق هؤلاء - فيما تحكمه مصالحهم إذا كان المتحاورون متكافئين - ترك سياسة الرقعة لأكثريتها وجذرها التاريخي .

والمشاعر الثانية مشاعر قسم يرى بقلبه مالا يراه الآخرون بعيونهم .. إلا أنهم قلة مستضعفون ، مغلوبون على أمرهم ، آيسون من جدوى التضحية .. وإن كان بعضهم أثر أعواد المشنقة لعلمه أن الكلمة لا تضيع .. ولهؤلاء سمعتهم التاريخية في تصحيح الأوضاع عام ١٩٥٢م ، وفي محاربة المحتل فيما بعد ذلك .. وتقتنع وتلتفع بأمجادهم من أعدوا إعداداً معقداً للتلاعب بالأمة ، وظلوا يتلاعبون بعواطفها إلى أن وصلوا إلى الحضيض الذي هم فيه اليوم ؛ فكانوا يوصفون في أحلك الأزمان بغزلان الصحراء .. وفي عقيدة أولئك الخيّرين : أن العرب لم ولن يفلحوا إلا بإمامة نبي الثقلين ﷺ .. ورأى هؤلاء أن فتنة التقدمية وروح العصر حق أريد به باطل ؛ لأن التقدمية التي تلزمهم إنما هي تحقيق الحرفة والمهارة التي تكون مصدراً للرزق وشغلاً للعاطل ، وتحقيق العلم المادي الذي يُحقّق لها الاعتبار في كون الله ، ويُحصّل لها حظها الدنيوي الذي نُهيّت عن نسيانه ، ويضمن لها بإذن الله القوة العسكرية عوضاً عن رباط الخيل؛ لتحمي العدل والأمن والكرامة. وتتصر المستضعفين في الأرض، وتعز منهج الله الذي اختاره للبشرية جمعاء .. وعلم هؤلاء - وهم أهل الذكاء والزكاء - أن الاستسلام للغالب في قوته وفكره وسلوكه ودعايته لن يحقق شرط التقدمية ؛ لأن الدول الغالبة أقوى وأذكى في إقامة الحاجز .

وإنما حصل بالاستسلام عن التقدمية من إغراق في المتعة والفضول وشهوة الجدل وحياة غير طبيعية لا تترك فرصة للمرء لكي يفكر ، وأوشاب من المظهر في الزي والمأكّل والمشرب والملبس لا تتحملها فطرة العربي الذي يسد رمقه يوماً ويجوع يوماً .. وفي دينه أن حسّبه من حياته لقيمات يُقمن صلبه .. وفي الرقعة ملايين

التقدميين وليس فيهم من يحسن صنع إبرة أو مناقش !! .. ورأى هؤلاء أن شرط وجودنا من التقدمية لا يتحقق إلا بالتجمع بدعاية الإسلام في الإرث التاريخي للمسلمين من الرقعتين ، وأن الاستغناء بموارد ومواهب العالمين العربي والإسلامي يحقق كتلة ثالثة تزن المعادلة في أرض الله ، وتكبح جماح الاستكبار العالمي على منهج الله .. والتقدمية المشروطة تأتي تلقائياً بعد هذا .. ورأى هؤلاء قباحة النفاق في كل مصير متجدد ؛ فعلى سبيل المثال ما نُعي قبل عام ١٩٥٢م من ترف ومجون ومداھنة للغالب ليس أسوأ من لصوصية ما بعد عام ١٩٥٢م ، وأحد هؤلاء اللصوص باغته كارثة الأمة عام ١٩٦٧م وكانت له القيادة وهو في غاية الانقياد لمستلذاته مع بقية الرفاق .. وكل المتغيرات بعد عام ١٩٥٢م لم تثبت لنا ولو مرة واحدة أن هناك شيئاً واقعياً اسمه «عدم الانتماء» !! .. ما رأينا قط إلا الانتماء المستسلم الأرعن .. إلا أنه انتماء يُعمى عنه بالمغالطة والسفسطة والتضليل الإعلامي .. وعلمنا قبل المتغيرات قيادات عريقة في تاريخها، رزينة في تصرفاتها، ثقيلة الوجود على الساحة .. وكان انتماءؤها وفقاً^(١) لمصالح أمتها وظروف ضعفها، وانتهاج أحلى الأمرين مع شهامة وكبرياء جريحة .. ولو ملكوا الحظ السعيد لكانوا أغير على مصالح أمتهم .. وهؤلاء يتفادون كثيراً من المصالح المؤقتة الزائلة ، وكثيراً من الشهرة والتطويل ؛ خوفاً من أن يكون انتماءهم فوق الحاجة .

وأيقن هؤلاء الخيرون بجدوى شرح وجهة النظر الإسلامية مع جبروت الإرهاب الفكري للتضليل الإعلامي ، وصبروا على قاموس الشتائم ابتداءً من الرجعية وانتهاءً بأصحاب الفضيلة في صيغة السخرية ، ولم يَغَرُّهُمْ تَقَلُّبُ الذين كفروا في البلاد ؛ لا اعتقادهم بأعباء الضياع مستقبلاً ، وبأن الكلمة لا تضيع، وبأن

(١) الشائع الآن الوقف بكسر الواو ، ولم أجد للشئى الموافق إلا الوقف بفتح الواو .

الأمة ستحنُ لدينها على الانقراض، وبأنها ستمد أعناقها إلى المورد العذب كظماء الإبل، وأن أكثر من تجربة فاشلة مغتصبة على الرقعة لن يلغي عودةً إرادية جماعية إلى طبيعة الوجود العربي، وهو الوجود المشروط بالإسلام.

والمشاعر الثالثة مشاعر قسم تشملهم دائرة القومية العربية الموهَّهة .. إلا أنهم أقليات يدينون بطائفية عرقية ودينية ، وهم يعلمون أن انتصار القومية أنسب لهم من انتصار الإسلام ، ولكنهم مع هذا يخافون أن تحقق القومية العربية وجوداً عربياً متلاحماً ، ويعلمون أن الحماس للقومية لحظة سكرة سيتبعها لحظة فكرة ، ومن ثم لن يجد المنتمون إلى القومية إلا ما هو شرط لوجودها ، وهو عودة الإسلام للدولة والحياة ؛ لهذا انقمعوا وتواروا وتظاهروا بالقومية والوطنية ، وهم لا يضيِّعون انتهاز أي فرصة للإفساد والتفريق .. فلما كانت نكسة عام ١٩٦٧م ظهرت وجوههم القبيحة على حقيقتها ، ولم يكن موقفهم من النكسة موقف المتحمسين الأولين الذين فقدوا طعم المذيع والجريدة ، وحطمت الهزيمة إرادتهم ، وأنفت كبرياء بعضهم من التراجع عن أجواء المناخ المخدر .. وأكثرهم لم يجعل الهموم السياسية قضية ، وإنما انصرف إلى ما يشغل وقته وموهبته من تثقُّف عام ، أو تخصص في فرع ثقافي ، أو تجارة ، أو لهو ، أو احتراف السخرية والتشاؤم .. ولم يكن موقفهم من النكسة موقف المتتورين الآخرين الذين عمرت العقيدة الإسلامية عقولهم وقلوبهم ، ونعوا جيل الهزيمة نعي الأب لعقوق أبنائه ، وكان ألمهم عتياً وتحسراً ، وكانوا يتربعون في كل لحظة المناورات الفكرية والسياسية بقناع آخر ، ويثقون بعد الله بقدرة الجيل اللاحق على قلب الموازين بعد صحوة الفكر ويقظة الضمير .. كان موقف هؤلاء الطائفيين من النكسة موقف العدو الشامت المتشفي .. اتخذوا النكسة جسراً للاستهزاء بدين الأمة ، وتاريخها ، وتحطيم ثوابتها .

ومجدنا التاريخي في هذه الجزيرة لا يتخلّى عن العروبة وهو دوحتها ، ولكنه يؤمن بها بشرطها، وذلك الشرط إنما هو الإسلام تاريخاً وسلوكاً .

قال الأستاذ محمد جلال كشك عن الملك عبدالعزيز: «كان مسلماً عربياً، لم تقم في ذهنه شبهة تناقض مزعوم بين الإسلام والعروبة ، ولا حاول أن يتجنب ألفاظ القومية كما يفعل المسحورون اليوم ؛ فهو يقول : «الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا وعروبتنا وقوميتنا»^(١) .. ويقول بالضم المليان : «أنا مسلم عربي رأست قومي بعد مصاعب طويلة»^(٢) .. هو الإسلامي الداعية للحل الإسلامي .. واجه الأتراك وقاتلهم باسم العروبة ودفاعاً عن العرب ، وكان يقال في مجالسه : إن الأتراك من نسل إبليس ؛ لأنهم من أولاد التتار^(٣) .. وحملاته على الأتراك معروفة ومشهورة ، ومعظمها يدور حول ما أنزلوه بالعرب من أضرار .. بل يفخر ويعتز بانتصار العرب على الفرس المجوس .. كانت العرب قبيل ظهور الإسلام ذليلة خاضعة لسلطان الفرس ، ولما بعث الله النبي ﷺ أخضع العرب و الفرس لسلطانهم ، وقد تم لهم ذلك ؛ لتمسكهم بكلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله^(٤) .. وهو المعتز بجزيرة العرب الذي - باختيارها اسماً للمملكة التي أسسها - كان أول من وضع العربية في اسم الدولة، وإن كان بمفهوم آخر غير مفهوم الستينات، وهو أحد الأركان المؤسسة للجامعة

(١) خطاب عيد الأضحى ١٣٦٥هـ - نوفمبر ١٩٤٦م [كشك] .

(٢) خطابه يوم الجمعة ٥ ذو الحجة ١٣٥١هـ - مارس ١٩٣٣م [كشك] .

(٣) قال أبو عبد الرحمن : هذا مضمون تافه ، وعقيدة عوام ، وليس ذلك عقيدة عبدالعزيز رحمه الله ، ولا دليل على أن تلك الجملة تردّد في مجالسه .. وعلى فرض أنه صدرت من عامي في مجلسه مرة أو مرتين ؛ فهو يتجاهل التعليق ؛ ترفعاً عن عقائد العوام ، وليس في تاريخ أولئك في تعاملهم مع الدولة السعودية ما يبهج نفس الملك عبدالعزيز ؛ فيرد مثل تلك الكلمة .

(٤) من خطابه ذو القعدة ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م [كشك] .

العربية، وقد روى العقاد عنه قصة أو مثلاً ضربه عن أهمية الجامعة العربية، وأن مصلحة العرب في الحفاظ عليها ، وأن الذين يُغَرَّرُون بالعرب بطرح شعارات مزيدة (بالرَّعم من أن تحطيم الجامعة يحقق مكاسب أفضل مثل جامعة الشعوب، أو الوحدة الاندماجية .. إلخ) : إنما يريدون هدم حصن العرب ؛ ليتمكنوا منهم»^(١).

قال أبو عبدالرحمن: من المهم أن نورد خطبة الملك عبدالعزيز لأنها تضع النقاط على الحروف حول العروبة والإسلام والخلافة .. قالت مجلة الفتح: «يقيم الملك ابن السعود في يوم من أيام الموسم من كل عام مأدبة عظيمة يدعو إليها ذوي الكلمة وأصحاب الرأي من حجاج الأقطار ووفود الممالك على بيت الله ، وهو يُحيي بذلك سنة قُصي وبني عبد مناف بما سنَّوه من رفادة الحاج ؛ توثيقاً للأواصر، وانتهازاً لفرصة التعارف .. وفي هذا العام أجاب وجهاء الحج دعوة الملك ابن السعود إلى موائده الكبرى ، وخطب في هذا الحفل سعادة وزير الأفغان المفوض في مصر السيد محمد صادق المجددي .. ولما انتهى من خطبته وقف جلالة الملك ابن السعود؛ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن مصائبنا من أنفسنا؛ لأننا نحن أعداء أنفسنا، والأغيار [أي غير المسلمين] لم يقدرُوا على إذلالنا إلا بعد أن رأوا منا العداوة لبعضنا ؛ فاللوم واقع (والحالة هذه) علينا لا عليهم ؛ لذلك يجب أن نصلح أنفسنا ، وأن نطهرها من الأضغان العالقة بها ، وأن نكون مسلمين حقاً إذا كنا نريد النهوض والخلاص ، وأن نعتصم بحبل الله جميعاً ؛ فنترك كل المنهيات والمنكرات إذا رغبتنا في النجاح والصلاح .. يجب أن يُعنى كل واحد منا بأمره أولاً، وبأمر إخوانه ثانياً، وأن يبذل جهده في إصلاح نفسه، وإصلاح إخوانه، وأن يقوم المعوج من أعمالنا وأخلاقنا، وأن يوجه كل منا مجهوداته نحو هذه الخطة المثلى .. أما أنا فإنني أعمل

(١) السعوديون والحل الإسلامي ص ٣٣ .

جهد الطاقة في سبيل إعلاء كلمة الدين، وإجلال عقيدة السلف الصالح في نفوس المسلمين والعرب ؛ لذلك أنا مُبَشِّرُ أدعو لدين الإسلام، ولنشره بين الأقوام .. أنا داعية لعقيدة السلف الصالح ، وهي : التمسك بكتاب الله ، وسنة رسوله [ﷺ] ، وما جاء عن الخلفاء الراشدين [رضي الله عنهم] .. أما ما كان غير موجود فيها فأرجع بشأنها لأقوال الأئمة الأربعة؛ فأخذ منها ما فيه صلاح المسلمين .. أنا مسلم، وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين ، وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين ولو على يد عبدٍ حبشي ، وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي وأسرتي ضحية في سبيل ذلك .. أنا عربي وأحب عزَّ قومي ، والتآلف بينهم ، وتوحيد كلمتهم ، وأبذل في ذلك مجهوداتي ، ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب ، وما يوحد أشتاتهم ، ويجمع كلمتهم .. أنا مسلم ومدافع .. أنا مسالم للناس ، وأحب النصيحة قبل كل شيء ؛ لأن الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، وأنا مدافع ؛ لأنني ما حاولت في وقت من الأوقات أن أعادي على إخواني وأبناء قومي .. كنت في كل وقت أقابل ما يصدر إليَّ من إساءة أو خطيئة بصدر رحب على أمل أن يرجعوا إلى الصواب ، ولكنني إذا رأيت تمادياً في الغي والإساءة أضطر حينئذ للدفاع .

وبعد أن أشار جلالته إلى عيوب بعض المسلمين، وما في أخلاقهم من نقص قال: إن الجهل قد تفشَّى^(١) ، وساد التخاذل بين المسلمين؛ فوصلنا إلى ما وصلنا إليه، ولم يبق من الدين إلا اسمه، وتفرقنا أيدي سبأ، وأصبح المسلمون فرقاً وشيعاً .. أما أولئك الذين يطبلون ويزمرون لحضارة الغرب ومدنيته ، ويريدون منا أن ننزل

(١) أسلفت كثيراً أن العبرة في الرسم بالنطق ، أما أصل الكلمة صرفياً فليس من مهمة الرسم الإملائي، بل هو من شأن علم النحو والصرف ؛ فكان منهجي الرسم هكذا «تفشَّى» ؛ ولكن اجتهادي لم يجد قبولا ؛ فأنبت عنه تأصيلاً لا تطبيقاً في كتابي «رسم القلم ورموزه» .

عندها : فَنَمَتَتْهَا فِي بِلَادِنَا وَبَيْنَ أَقْوَامِنَا : فَإِنَّا نَسُوقُ إِلَيْهِمُ الْحَدِيثَ بِتَوْجِيهِه
أَنْظَارَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْأَزْمَةِ الْخَانِقَةِ ، وَإِلَى هَذَا التَّبْلِيلِ السِّيَاسِيِّ ، وَإِلَى الْفَوْضَى
الاجْتِمَاعِيَةِ السَّائِدَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ .

وَاسْتَطَرَدَّ جَلَالَتُهُ فَتَكَلَّمَ عَنْ مَرْكَزِهِ الشَّخْصِيِّ وَسِيَاسَتِهِ : فَقَالَ : فَرِيقٌ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ يَنْقِمُونَ عَلَيَّ : لِأَنِّي أَدْعُو لِعِبَادَةِ اللَّهِ عِبَادَةً خَالِصَةً ، وَلَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ
أُرْتَكِبَ الْمُنْهَيَّاتِ : فَأَمَرَ بِإِقَامَتِهَا فِي الْبِلَادِ : فَأَنَا أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ
الْبَاطِلَةِ ، وَأَفْخَرُ بِأَنِّي سَلَفِي مُحَمَّدِي عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ [عَلَيْهِ السَّلَام] .. إِنْ
دُسْتُورِي وَقَانُونِي وَنِظَامِي وَشِعَارِي : هُوَ دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ : فَإِمَّا حَيَاةٌ سَعِيدَةٌ عَلَى
ذَلِكَ ، وَإِمَّا مَوْتٌ سَعِيدٌ .. أَمَا أَنِّي أَدَّعِي الرِّئَاسَةَ عَلَى النَّاسِ ، أَوْ أَطَالِبُ بِهَا : فَهَذِهِ
لَيْسَتْ صَحِيحَةً .. عَلَى أَنْ مَقَامِي لَيْسَ دُونَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَنْ هُوَ أَسْمَى مِنِّي
نِسْباً إِلَّا بَيْتَ الرَّسُولِ ﷺ فَقَدْ أَعْزَمَهُمُ اللَّهُ بِقَرَابَتِهِمُ لِلرَّسُولِ الْكَرِيمِ [ﷺ] ، وَلَكِنْ
هُنَاكَ شَرْطٌ يَشْتَرِطُ عَلَى ذَلِكَ : فَإِنْ آلَ الرَّسُولِ يَتَقَدَّمُونَ النَّاسَ إِذَا نَفَذُوا الشَّرِيعَةَ
الْإِسْلَامِيَّةَ : فَفَضْلُهُمْ يَتَأْتِي عَنْ هَذَا الطَّرِيقِ ^(١) : فَإِذَا انْحَرَفُوا عَنْهَا لَا يَبْقَى لَهُمْ
فَضْلٌ عَلَى غَيْرِهِمْ .. أَنَا عَرَبِيٌّ وَمِنْ خِيَارِ الْأَسْرِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَسْتُ مَتَطَفِلاً عَلَى الرِّئَاسَةِ
وَالْمُلْكِ : فَإِنْ أَبَائِي وَأَجْدَادِي مَعْرُوفُونَ مِنْذُ الْقَدَمِ بِالرِّئَاسَةِ وَالْمُلْكِ ، وَلَسْتُ مِمَّنْ
يَتَّكِلُونَ عَلَى سِوَاعِدِ الْغَيْرِ فِي النَّهْوِ وَالْقِيَامِ ، وَإِنَّمَا اتَّكَلَيْتُ عَلَى اللَّهِ ، ثُمَّ عَلَى

(١) قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ : سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ آخِرُ هَذَا الْكِتَابِ تَحْقِيقُ الْقَوْلِ إِنْ حَدِيثُ
«الْأُتَمَّةُ مِنْ قَرِيشٍ» مِنْ نَاحِيَةِ الْخَبَرِ خَاصٌّ بِعَصُورٍ مَعِينَةٍ ، وَمِنْ نَاحِيَةِ الْأَمْرِ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ
انْعَقَدَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قُرَشِيًّا .. وَلَوْ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لِآلِ الْبَيْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَسَلِمَهَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ ، أَوْ ابْنِ عَمِّهِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .

سواعدنا يَتَكَيَّ الآخرون ويستندون .. أنا لا أفتش ولا أسعى للرئاسة ، ولا أريد علواً في الأرض ، وإنما يهمني في الدرجة القصوى جعل كلمة الله هي العليا ، ولا يهمني في هذا الشأن ما يعترضني في الطريق من المصاعب والمتاعب .. لقد حاربتنا جيوش جرارة في أدوار مختلفة منذ أن قمنا بهذه الدعوة المباركة ؛ فكان نصيبها رغم كثرة عديدها وَعَدِيدِهَا الفشل والخسران .. ولله الحمد .

ماذا يريدون من ابن سعود ؟ .. ماذا عمل ابن سعود ؟ .. هذه أعمالي واضحة بيّنة : أزلت كل سَيِّئَةٍ ، وأقمت كل معروف ، ونهيت عن كل منكر .. وحجتي في ذلك كتاب الله وسنة رسوله [ﷺ] .. إنني أبرأ إلى الله من كل محرم أن أبيحه ، وأبرأ إلى الله من كل منكر أن أمر به .. وأنا على استعداد لمعالجة كل من يريد محاججتي بكتاب الله وسنة رسوله [ﷺ] .. يقولون : إنني أطلب الملكية ، وأن أصير خليفة على المسلمين .. أنا ما ادعيت هذا ولا طالبت به ؛ لأن على الخليفة واجباً هو تنفيذ أوامر الدين على كل أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .. وهل هنالك من رجل يستطيع أن يُنفِذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام ؟ .. لقد كان من المستطاع أن يكون ذلك في عهد الخلفاء الراشدين أيام كانت كلمتهم تسري على كل فرد من أفراد المسلمين ، أما اليوم فلا يمكن ذلك .. وإنني أتمنى أن يتم جمع المسلمين وتوحيد كلمتهم ، وإنني لعلّى استعداد لأن أكون أنا وأسرتي كجندي بسيط أجاهد في هذا الشأن، وأن لا أدخر جهداً في سبيل توحيد بلادي ، وتوحيد كلمة العرب ، وتأسيس الوحدة بين العرب .. وإذا كنت أنا أسعى في ذلك فلست أريد من وراء ذلك جزاءً ولا شكوراً ، وإنما يهمني وأتمنى من صميم القلب أن يتم لِّمُّ شعث المسلمين ، وأن يسالم بعضهم بعضاً ؛ فيكفوا الأذى بعضهم عن بعض .

وأنا مسلم عربي .. رأست قومي بعد مصاعب طويلة ولا فخر في ذلك .
وتسير الآن وراثي جيوش جرّارة لا تقل عن أربعمئة ألف مقاتل إن بكيّت بكوا، وإن
فرحت فرحوا، وإن أمرت نزلوا على إرادتي وأمري ، وإن نهيت انتهوا .. وهؤلاء هم
جنود التوحيد إخوان من أطاع الله ، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله ، ولا يريدون
من وراء ذلك إلا رضا^(١) الباري جل وعلا .. وإن هذه القوة هي موقوفة لتأييد
الشريعة، ونصرة الإسلام في الديار التي ولّاني الله أمرها: أعادي من عادى الله
ورسوله، وأصالح فيها من لا يعادينا ولا يناوؤنا بسوء، وإنني وجندي جنود في سبيل
جعل كلمة الله هي العليا ودينه هو الظاهر .. نسأل الله أن يأخذ بيدنا ، ويوفقنا لما
يحبه ويرضاه»^(٢) .

قال أبو عبدالرحمن : وفي يوم الخميس ١٣ صفر سنة ١٣٦٥هـ كان الملك
عبدالعزیز رحمه الله في مصر ؛ فقال مخاطباً أعضاء الوفد المكوّن من مشايخ
العرب في مصر الذين قدموا للسلام عليه بقصر الزعفران : «إن جامعة الدول
العربية ليست بنت اليوم ؛ فقد فكّرنا فيها منذ زمن بعيد ، وقد كان يعرف ذلك أخي
المرحوم أحمد الباسل كما يعرفه البشير السعداوي» .. وإذا أعلنها عبدالعزیز فإنما
يعلنها عن أهلية أولاً ، وعن تجربة صادقة ثانياً ، وعن رؤية شاملة ثالثاً ؛ فأما
الأهلية فعبدالعزیز من أرومة الأمة العربية نسباً وبلداً ومنشأً، وتربية ، وهو الذي
وصل المنقطع من تاريخ دولة مسلمة صميمة العروبة والمنشأ ذات سبق في توحيد
العرب تحت راية الإسلام، وهو ذو الإجماع التاريخي على مواهبه العقلية وخصائصه

(١) رضا : مصدر بالقصر .. وإذا مد هكذا «رضاء» فهو اسم .. هكذا روى الأخفش .

(٢) مجلة الفتح العدد ٣٤٢ في ١٣٥٢/١/٢هـ ص ٤ - ٥ .

التي تتوزع عناصرها في عدد من المرموقين (وقلما انطوى عليها إهاب واحد) ..
والندرة في اجتماع الخصائص من أميز ملامح العبقرية .. وأما التجربة فقد فجّر
الجزيرة العربية - وليس فيها غير عربي - طيلة نصف قرن بانتصارات لا تزال
الأمّة تجني مكاسبها ، فقد انتهت آحاد الحكومات وعشرات الإمارات ، واتحدت
في دولة واحدة .. ووجّه هذا القائد العظيم فروسية العرب التي تريق الدماء في
الرمال للنهب والسلب والنخوات القبلية؛ فجعلها جيشاً منظماً يحمل أعباء أمة
وهمومها .. وقبل توحيد عبدالعزيز للجزيرة ، وبعد نتائج الحرب الأهلية بين أبناء
الإمام فيصل ابن تركي رحمهم الله : مر بنجد - بل بالجزيرة - فترة من الإمارة
المستتبة ، ولكن لم يعايشها تفكير حضاري .. أما عبدالعزيز الذي يعايش أبناء شعبه
بفكرهم ولهجتهم العامية أحياناً : فقد كان ينطلق من عقل حضاري ، وكلما فجّر
انتصاراً عسكرياً شفعه بتفجير حضاري ابتداءً بتهجير البادية وتعليمهم تعليماً
ابتدائياً ، وانتهاءً بإيجاد مناخ في رقعتنا العربية القاحلة الأمية .. إيجاداً تفجّر
عنه الوعي الثقافي ، والوعي بالعمل في كل مرفق من مرافق الحياة .

وليس الطريق أمام عبدالعزيز مما يُظنُّ أنه قابل للتعبيد؛ فقد كان يعتوره
تزمت غير الواعين أمام كل عمل حضاري ، ولكن تمكّنه في الفقه الإسلامي،
ومعرفته بالأحكام الشرعية : مكنّ له جلالاً في المنطق ، وقوة في الحجة .

وكل من في الجزيرة يعرف أنه لا دعاية لعبدالعزیز غير دعاية الإسلام :
يتكيف مع ثوابته ، ويستثمر موهبته ومشورة ذوي الرأي في التكيف الحضاري وفق
سعة الإسلام ويسره ، ووفق ما جعله الإسلام لاجتهادنا في شؤون دنيانا .. فمن كل
هذا الواقع إضافة إلى تبصّر علماء الشريعة الذين حملهم عبدالعزيز أكثر الأعباء

التي هي من شرط الدولة الإسلامية : استطاع أن يزيل التزمت من النفوس بالحجة والإقناع حتى حولهم إلى خلايا حية .

ولا تُقاس الجزيرة بأي دولة عربية عرفت شيئاً من الوعي الثقافي كمصر التي عرفت الحضارة منذ عام ١٧٩٨م .. وفي أقل من نصف قرن بدت جزيرتنا وكأنها تُدَلُّ بخبرة قرون طويلة : ولهذا لا يعتقد أبناء الجزيرة أن عبدالعزيز ملك كالمملوك : عبر في حياتهم ، وطويت صفحته مشكورة : لحفظه النظام وإقامة العدل فحسب .. إن هذا أقل منةً يعترفون بها لعبدالعزيز ، والمنة لله أولاً .. أما الأهم فهو أنهم يعتبرونه أستاذاً لهم : فلولا الله ثم عقل عبدالعزيز الحضاري لكان من المتوقع أن نظل على حرف آباءنا البدائية ، وعلى أميتهم وعاميتهم .. وهم يعتبرونه أباً حنوناً : لأن إقامته للأمن الذي تلاشى نهائياً ، ورده للحكومة الإسلامية إيجابيتها ، وإتاحته فرص العمل للكادحين .. كل ذلك جعل لكل أسرة بناءً كريماً صحيحاً شريفاً .. وهم يعتبرونه باعث طمأنينة للأمة على رأس القرن الرابع عشر بعد طول ضياع وعذاب ، وهذا من المبشّر به في الشرع عمن يجدد للأمة أمر دينها ، وعن قيام طائفة على الحق منصوره : ففي نصاب الشرع عبدالعزيز رجل علم وعمل .. وكون الحاكم عليمًا بأحكام الشرع : ذا أثر عظيم في صلاح الأجهزة ومراقبتها : ولهذا كان الفقه في الدين من أهلية الحاكم في الفقه الإسلامي .

وأما الرؤية فكان عبدالعزيز ذا وعي تام بأعباء الأمة الواقعة وراء جغرافية دولته التي لا يملك لها إلا ما يملكه الشقيق الذكي من بث الوعي والتبصير .. والعروبة والوطنية في تفكير عبدالعزيز نتيجة حتمية إذا كانت الدعاية للإسلام حيث لا يفلح عربي إلا خلف نبي .. وأصدق نجاح للعروبة والوطنية - منذ أُنْخِمتا

بهذين الشعارين - هو هذه النتيجة لما جدده عبدالعزيز من عهد الدولة الإسلامية؛
فعروبة الجزيرة أخلص عروبة عرفت لصفائها من خليط العرق والمذهب.. ووطنيتها
أصدق ؛ لأنها دولة واحدة ، وجغرافية واحدة، وتاريخ واحد، وبيئة واحدة .. وواقعها
هو المعقول لواقع القومية والعربية ؛ لأن الولاء للإسلام وأهله هو المعيار لصحة
العروبة ، ولأن الصدق في جعل الإسلام واقعاً عملياً هو المحك لصدق الوطنية ؛
فحرارة الولاء للوطن بقدر ما يكون دار إسلام .

لقد عمل عبدالعزيز للوحدة العربية منذ عام ١٩٤٢م ، وتبادل الزيارات مع
حاكم مصر لهذا الغرض ، وعبر عن غبطته باجتماع رضوى في خطاب وجهه إلى
شعبه في يناير سنة ١٩٤٦م .

وعصر عبدالعزيز أسوأ ظروف العرب ، وهو ربيع حياة عبدالعزيز في
توحيد الجزيرة والنهوض بها .. ومع سوء الظروف خارج خريطة الجزيرة فقد أبقى
التاريخ لعبدالعزیز الصدق والحصافة في مشاركاته السياسية تجاه مفهوم الجامعة ،
وقضية فلسطين ، وسورية الكبرى .. ولا يزال يذكر له التاريخ شرف الموقف ونزاهة
النية حيال أعباء الأمة وقضاياها .